الإيمان بالله
والجدل الشيوعي

دراسة بقلم
فتح الرحمن أحمد محمد الجعلي

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة
الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة - الدور الثاني - شقة رقم ٧ - ١٢
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ / ٦٤٢٤٠٤٣ / ٦٤٢٤٢٥٥
المستودعات : طريق مكة المكرمة، شرق المطار القديم - تليفون : ٦٤٧٢٣٩١
تلكس : ٤٠٤٣٥١ نشرا - ص.ب : ٢٠٤٣
المكتبة : شارع الملك عبد العزيز - تليفون : ٦٤٧٨٧٢٣
المكتبة : شارع فلسطين - مركز الزومان - تليفون : ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام : الشارع العام - ص.ب : ٨٩٩ - تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ / ٨٣٣٥٥٢٠
الرياض : شارع الستين - ص.ب : ٩٤٧٢ - تليفون : ٤٦٤٧٥١٥ / ٤٧٦٩٠٨٦

تمهيد

إن فكرة الأديان الأساسية ترتكز على الإيمان بوجود (إله) خالق أزلي مستقل تماماً متجرد عن المادة وعن الشبيه والنظير .

والشيوعيون لا يعترفون بهذه الحقيقة لأن الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة الشيوعية الماركسية هو مبدأ التغيير المستمر . فكل شيء من وجهة نظر الماركسية في حال تغيير دائم سواء أكان ذلك الشيء في عالم المادة الجامدة أم عالم الفكر . كل شيء تدفعه الصيرورة إلى الزوال كل شيء متجدد فلا شيء يبقى على حالة واحدة حتى الأفكار والدين والقيم آيلة إلى التبدل والتغيير . وما يعمر الأذهان من قيم وأفكار هو نتيجة لانعكاس الأوضاع الإجتماعية لهذا فهو متبدل متغير ووجوده رهن بكينونته الخاصة وفناؤه رهن بنمو هذه الكينونة وتطورها إلى شيء جديد .

وكنتيجة لهذا تدعي الشيوعية أن الذي يعتقد من الناس في وجود (إله) هو معتقد بشيء لا يوجد في هذه الطبيعة .

فالفكرة الأساسية في الشيوعية لا تقر مبدأ وجود (إله) بل ان ذات الله في الشيوعية تخضع للتغيير ذلك لأن الشيوعية تفسر وجود الله تفسيراً لا ترتبط قيمته بحقيقة (الإله) بقدر ما ترتبط بتصورات البشرية (للإله) وتأخذ الشيوعية اختلاف البشرية في تصور معنى الله دليلاً على أن الله ليست له حقيقة في الواقع ونفس الأمر .

والجدل الشيوعي لا يناقش حقيقة (الإله) إلاّ على أساس المفهوم التاريخي

أو بمعنى أدق أن الجدل الشيوعي يناقش فهم الإنسانية وتصورها عبر التاريخ للإله ويتخذ من إختلاف البشرية حول تصور معنى الله دليلاً على خضوع الإله للتغيير . قياساً على أن كل شيء يتجدد ويتغير . والله عند كارل ماركس مؤسس الشيوعية ليست له حقيقة واقعية بل ان شروطاً موضوعية معينة هي التي تخلق في الأذهان معنى الله .

وهذه الدراسة تناقش مفاهيم الشيوعية حول قضية الإيمان بالله وتعمد إلى عرض الشيوعية في حقلي الفلسفة والتطبيق عرضاً كاملاً يبرز الشيوعية عارية من كل طلاء خادع أو بهرج كاذب ، .

ضاحية أم سنط ـ ود مدني .

فتح الرحمن الجعلي

الفصـــل الاول

المادية الديالكتيكية .
الجدل والديالكتيك .
الديالكتيك الهيجلي .
منهج الديالكتيك الهيجلي .
ديالكتيك ماركس .
الالوهية والديالكتيك .

المادية الديالكتيكية :

« المادية الديالكتيكية اسم يطلق على النظرية العامة التي يتبناها الحزب الشيوعي الماركسي . وأول من أطلق هذا الإسم على هذه الفلسفة هو (لينين) » .

وقد سميت بالمادية لأن تعليلها لحوادث الطبيعة وتصورها لهذه الحوادث أي نظريتها مادية . وسميت ديالكتيكية لأن اسلوبها في النظر إلى حوادث الطبيعة وطريقتها في البحث والمعرفة ديالكتيكية[1] .

وكلمة ديالكتيك ليست عربية في مادتها فقد اخذت من الكلمة اليونانية (ديالیقو) ومعناها المحادثة والمجادلة . وكان الديالكتيك يعني « فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم وبالتغلب عليها[2] » « ويرى بعض الفلاسفة أن المصادمة بين الآراء واكتشاف تناقضات الفكر هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة [3] » .

الجدل والديالكتيك :

تدل كلمة جدل على معنيين :

تعني الكلمة أولاً فن الكلام . ذلك الفن الذي يجعلنا نفهم ويبرهن لنا على

---

(١) صفحة أ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

(٢) صفحة د مقدمة المادية لخالد بكداش .

(٣) صفحة ٥ ، ٦ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

صحة ما نعتقد . كما أنها تعني ثانياً فن المناقشة تلك المناقشة الهادفة التي تجعلنا نكشف للخصم عن الحقيقة بما نبسطه أمامه من حجج وبراهين .

إذن فكلمة جدل تتضمن فن البرهان وفن دحض كلام الخصم لأن المجادل يدري كيف ينظم معرفته فيضعها في نظام متماسك كما يعرف بصفة خاصة كيف يجد أساساً منطقياً لآرائه . كما أن المجادل يتميز على نحو خاص ببراعته في تمييز الصحيح من الفاسد فيما يعرضه الآخرون من آراء كما يتميز أيضاً بمقدرته على اكتشاف موطن الضعف في نظرية الخصم وإدلائه بالحجج القاطعة التي تستطيع أن تحيل المعترض إلى السكوت [1] » .

وإذن فالجدل وثيق الصلة بالمنطق غير أن هذه الكلمة كلمة منطق أحرى أن تدل على نظرية التفكير العقلي في حين أن الجدل يقوم على فن تطبيق معرفتنا بالقواعد المنطقية على سياق المناقشة [2] » .

فالجدل إذن عبارة عن فن صوغ المحاكمات المتماسكة والدقيقة وجعلها تتسلسل بصورة محكمة [3] » .

أما الديالكتيك ـ فيعرف بأنه « درس التناقضات في ماهية الأشياء ذاتها [4] » ونقطة الإبتداء في الديالكتيك هي وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية لأن لها جميعاً جانباً سلبياً وجانباً ايجابياً ماضياً وحاضراً وفيها جميعاً عناصر تضمحل وتتطور . فنضال هذه المتضادات أي النضال بين القديم والجديد بين ما يموت وما يولد بين ما يفنى وما يتطور ، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور [5] » الديالكتيكي .

---

(١) صفحة ٦ ، ٧ هذه هي الديالكتيكية .

(٢) صفحة ٧ المصدر السابق .

(٣) صفحة ٤٨ نفسه .

(٤) صفحة ١٣ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

(٥) صفحة ١٢ ، ١٣ المرجع السابق .

وتعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى إلى الأعلى لا تجري بتطور الحوادث تطوراً تدريجياً متناسقاً بل بظهور التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث بنضال الإتجاهات المتضادة التي تعمل على أساس هذه التناقضات [1] » .

ولقد كان هيراقليطس يؤخذ بصورة قوية حينما يلوح له مشهد الأشياء وهي تتحول إلى أضدادها بدون توقف كأن يتحول الحار إلى بارد والحياة إلى موت [2] » وهو القائل «إننا موجودون ولا موجودين [3]» .

« ولهذا اعتبر هيراقليطس أباً للجدل الحديث ولكن هيراقليطس لم يصل بفلسفته إلى أبعد من ذلك . حتى إذا جاء هيجل تبنى جميع ما نادى به هيراقليطس وكان يقول :

« ما من قضية نادى بها هيراقليطس إلاّ تبنيتها في كتابي المنطق » .

لقد أخذ هيجل أساس فلسفته من هيراقليطس وتزعم الفكرة القائلة انه يجب أن لا ينظر إلى العالم كمركب من الأشياء التامة بل كمركب من عماليات تمر فيها الأشياء ـ التي تبدو ثابتة في الظاهر ـ بسلسلة من التغيير المتصل من الصيرورة والزوال حتى يخرج إلى النور في النهاية ، تطور تقدمي رغم سائر المصادفات الظاهرة وجميع التراجعات الموقتة [4] وكانت هذه الفكرة بداية التخطيط للديالكتيك الهيجلي .

الديالكتيك الهيجلي :

يعتبر ديالكتيك هيجل مسايرة للمنطق في خطواته نحو الكشف عن الحقيقة . ذلك اننا نعرف بالتجربة أن فكر كل منّا لا يتابع قواعد المنطق في خطواته

(١) صفحة ١٢ ، ١٣ المرجع السابق .
(٢) صفحة ١٢ هذه الديالكتيكية تأليف بول فلكييه .
(٣) صفحة ١٣ المصدر السابق .
(٤) صفحة ٨٥ لودفيج ليورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف انجلز .

التلقائية لأن المنطق قد أتى بعد التفكير . بل ان الفكر أبعد ما يكون عن أن ينتقل من الشيء إلى مثيله انه ينتقل من الشيء إلى خلافه بل أكثر من ذلك ان الفكر بحاجة إلى التناقض كمثير يدفعه إلى التفكير [1] .

وإن الفكر في مسايرته للمنطق وممارسته لعملية التفكير يحاول أن يوحد الموضوعات وأن يرد الموضوع الجديد إلى نموذج عرفه من قبل . غير أن عملية التوحيد هذه تفترض أن الفكر صادر عن الإختلاف . ونعني بذلك الإختلاف في الموضوعات التي هي شيء واحد وإلاّ لما استطعنا أن نوحد بينها لكن هذه الموضوعات ليست الشيء ذاته في الوقت نفسه وإلاّ لما احتجنا إلى التوحيد بينها . إذن فالفكر يفترض الهوية والتناقض في وقت واحد .

هذا بالنسبة للفكر . أما بالنسبة للطبيعة[2] «فإن الأمر لا يختلف عن ذلك كثيراً إذ اننا لا نلاحظ فقط صراعاً دائماً للقوى المتضادة في الطبيعة بل إن الطبيعة بدون هذا الصراع لا بدّ أن تبقى في حالة عطالة قريبة من العدم لأن الطبيعة مثل الفكر تماماً تتولد حيويتها من هذا الصراع المتواصل ، إذن فالواقع سواء في الفكر ، أو في الطبيعة يتضمن الهوية والتناقض في وقت واحد . غير أنه يجب علينا أن ننظر بعين الإعتبار إلى التناقض وكأنه أعمق من الهوية وأكثر جوهرية منها[3] لأن الهوية ليست إلاّ تحديد ما هو بسيط مباشر في الوجود في حين أن التناقض هو أساس الحركة كلها .

ذلك لأن هذا التناقض الذي يحمله هذا الشيء في ذاته هو وحده الذي يجعل هذا الشيء يتحرك ويندفع وينشط[4] أما الهوية فليست إلاّ حالة من حالات هذا الشيء المتحرك المتنقل من هوية إلى أخرى . فالتوفيق بين المتضادات سواء في مجال الأشياء أو في مجال الفكر يؤلف ما يدعوه هيجل بالجدل [5] .

(١) صفحة ٧٤ هذه هي الديالكتيكية تأليف بول فلكييه.
(٢) صفحة ٧٥ المصدر السابق .
(٣) صفحة ٧٥ المصدر السابق .
(٤) صفحة ٧٥ المرجع السابق .
(٥) صفحة ٧٥ نفسه .

منهج الديالكتيك الهيجلي :

إن المنهج الذي ينهجه الديالكتيك الهيجلي يتضمن ثلاث مراحل تدعى ببساطة الأطروحة والطباق والتركيب . وهذه المراحل يسميها هيجل عادة الإثبات والنفي ونفي النفي [1] . والمثال الذي يضربه هيجل لبيان هذه المراحل هو :

« الوجود موجود » .

هذا هو الإثبات أو الأطروحة . لكن تكمن في قولنا الوجود موجود ملامح للنفي لأن الوجود غير المحدود بصفة كلية الذي ليس هذا الشيء أو ذاك يعادل العدم . إذن فقد افضت بنا الأطروحة التي هي المرحلة الأولى من مراحل الديالكتيك الهيجلي إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الطباق لأن النتيجة هذا الوجود ليس موجود ما دمنا أثبتنا أنه يعادل العدم .

إلاّ أننا نستطيع أن ننفي هذا النفي الأخير إذا حصرنا الوجود في صورة الوجود المحدود الذي هو هذا الشيء أو ذاك الشيء وهذه مرحلة التركيب التي هي المرحلة الأخيرة من مراحل الديالكتيك الهيجلي . فالملاحظ أن مرحلة التركيب هذه وهي المرحلة الأخيرة من مراحل الجدل الهيجلي لم تنف أن هذا الوجود يعادل العدم إذا كان في صورة الوجود غير المحدود بل لجأت إلى إثبات الوجود بصورة الوجود المحدود فكأن التعبير الوجود موجود تتضمن هويته نفي الوجود كما تتضمن إثباته لأن نفي النفي يرفع التناقض ولكنه يظل محتفظاً بالقضيتين المتقابلتين [2] » .

ذلك لأنا لم نعدل في التعبير بحذف صياغة وإيراد صياغة أخرى تحل محل التعبير المحذوف وتدل على المعنى المقصود وحده بل رفع النفي في نفس إطار اللفظ المأخوذ معنا .فكأن نفي النفي لفت النظر إلى أن المقصود من المدلول اللغوي جانب واحد وليست كل الجوانب التي يدل عليها اللفظ . إن المرحلة الأخيرة من

---

(١) صفحة ٧٥ ، ٧٦ هذه هي الديالكتيكية تأليف فلكيبه .
(٢) صفحة ٧٦ المصدر السابق .

مراحل الجدل الهيجلي (مرحلة التركيب) تدل على توقف التفكير في الفكر والحركة في الأشياء ولكنه ليس توقفاً نهائياً .

إنه يستثير بدوره النفي الخاص به ذلك النفي الذي لا بدّ لتركيب جديد من أن يرفعه وهكذا بدون تحديد [1] » .

لو أن هذا العمل الذي لا ينقطع والذي تقوم به الأطروحات الطباقات والتركيبات كان يحدث في الفكر فقط وبمعزل عن الأشياء المادية لكان من السهل علينا فهمه وتحديد أبعاده نهائياً . غير أنه يحدث أيضاً في الأشياء المادية التي لا تفكر بل أكثر من ذلك ان جدل الفكر ليس إلاّ نتاجاً جديداً خالصاً وبسيطاً لحركة الأشياء .

إن الفكر ليس جدلياً إلاّ بمعنى أنه يرسم جدلاً للواقع . فإذا استثارت فكرة من الأفكار فكرة اخرى مقابلة لها فلأن الواقع الذي تمثله هذه الفكرة يتطلب الواقع المضاد. فهيجل يرى أن التطور الديالكتي الظاهر في الطبيعة والتاريخ أي التسلسل السببي للتقدم الذي يفرض نفسه من الأدنى إلى الأعلى عبر سائر الحركات المتعرجة ومختلف التراجعات المؤقتة . هذا التطور الديالكتيكي إذن ليس سوى إنعكاس الحركة الذاتية للفكرة المطلقة منذ الأزل لكن بصورة مستقلة عن كل دماغ إنسان مفكر [2] .

بناء على هذا نستطيع أن نفهم التطور على أنه سلسلة من عمليات متلاحقة من الصيرورة والزوال . وأن الوجود في مشاقة مع نفسه يحتوي في داخله على عراك وتمزق باطني لكنه عراك ينتهي في الخطوة التالية ولا يلبث أن يرفع ثم يعود من جديد وهكذا باستمرار ولكن النتيجة العامة هي التطور والتقدم[3] والمثال المدرسي الذي

---

(١) صفحة ٧٧ المصدر السابق .

(٢) صفحة ٨٣ ، ٨٤ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف فردريك انجلز .

(٣) صفحة ١١ التفسير الإشتراكي للتاريخ مختارات من ماركس وانجلز ترجمة راشد البراوي .

يضربه هيجل على ذلك ملخصاً فيه فلسفته « كل ما هو واقعي عقلي وكل ما هو عقلي واقعي [1] » .

لكن صفة الواقعية لا تنطبق عنده إلاّ على ما هو ضروري في الوقت نفسه فهو يقول يتضح الواقع في مجرى تطوره على أنه الضرورة[2] وما هو ضروري يتضح أيضاً في ختام الأمر أنه عقلي [3] .

فالضرورة هي التي جعلته عقلياً وواقعياً فإذا فقدها اصبح لا عقلياً ولا واقعياً فالواقع عند هيجل متطور لأنه يساير الضرورة والضرورة نفسها لا تبقى قائمة إلى الأبد ، مثال ذلك :

إنشاء مصانع (الحديد) في السودان في الوقت الحاضر ضرورة لأن البلاد تحتاجها إذن فأمر بناء هذه المصانع عقلي وواقعي لأنه ضروري فإذا قامت في البلاد تلك المصانع وبنيت بالدرجة الكافية التي تستوعب كل الضرورات اصبح التوسع في إنشاء عدد آخر من مصانع الحديد لا عقلي ولا واقعي لأنه ليس ضرورياً . وهكذا فإذا انتفت ضرورة شيء من الأشياء أصبح ذلك الشيء لا عقلياً ولا واقعياً ومن هنا يستحيل أن تظل الضرورة نفسها في الدولة نفسها إلى الأبد . وهكذا تجد خلال التطور التاريخي أن كل ما كان واقعياً من قبل يصبح غير واقعي ويفقد عنصر ضرورته وحقه في الوجود وطابعه العقلي وتحل محل الحقيقة الفانية حقيقة جديدة قابلة للحياة [4] .

---

(١) صفحة ٣٥ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف فردريك انجلز .
(٢) صفحة ٣٦ المصدر السابق .
(٣) صفحة ٣٦ المصدر السابق .
(٤) صفحة ٣٧ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف انجلز .

ديالكتيك ماركس

أما ديالكتيك ماركس فهو قائم على أسس الديالكتيك الهيجلي وأن انجلز يعترف بأنه وصديقه ماركس قلبا ديالكتيك هيجل فاعتبرا ديالكتيك الطبيعة هو الأساس الذي ينتج عنه ديالكتيك الفكر .

بل ان الفكر نفسه عند ماركس ما هو إلاّ انعكاس لحركة الطبيعة وتفاعلاتها في حين أن هيجل يرى أن ديالكتيك الواقع يكون نتيجة للإستجابة لما هو عقلي لأن كل ما هو عقلي واقعي وكل ما هو واقعي عقلي . يقول انجلز شارحاً الديالكتيك الماركسي :

« فأعدنا النظر إلى فكر دماغنا من وجهة النظر المادية على اعتبار انها انعكاسات للأشياء بمعنى أن كل التفكير الذي يمتلىء به دماغ الإنسان إنما هو عبارة عن انعكاس للأشياء المادية الملموسة في الحياة التي يحياها البشر . وعلى هذا يكون التفكير الذي يمتلىء به الدماغ عبارة عن انعكاس للأشياء المادية لا أكثر وبهذا الشكل يفسر ماركس وانجلز كل ما يعمر الدماغ البشري من تفكير . ويعتقدان أنهما بهذا ارجعا الديالكتيك إلى علم القوانين العامة للحركة سواء أكانت حركة العالم الخارجي أو حركة الفكر الإنساني[1] » .

ويؤكد انجلز أن قوانين الحركة هذه (يستطيع الدماغ البشري تطبيقها تطبيقاً شعورياً واعياً في حين[2] أن هذه القوانين لا تشق طريقها في الطبيعة والقسم

---

(١) صفحة ٨٤ المصدر السابق .

(٢) صفحة ٨٤ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ انجلز .

الأعظم من التاريخ البشري إلاّ بصورة لا شعورية على صورة الضرورة الخارجية في ملء سلسلة لا متناهية من المفارقات الظاهرية أما الفكر ذاته فهو مجرد انعكاس واع للحركة الديالكتيكية الخاصة بالعالم الواقعي)[1] وعندما يقرر فردريك انجلز أن الفكر مجرد انعكاس واع للحركة الديالكتيكية الخاصة بالعالم الواقعي ، ينفي وجود الله لأنه ـ حسب المنطق الشيوعي ـ ما دام الفكر في حد ذاته لا يكون إلاّ انعكاساً واعياً للحركة الديالكتيكية الخاصة بالعالم الواقعي المحسوس فالله ليس له وجود . لهذا تعتبر الشيوعية أن القول بوجود الله إضافة غريبة على هذا العالم الواقعي . فالله على هذا المنطق فكرة خيالية موهومة . والحياة على هذه الأرض لا ينسبها الشيوعيون إلى وجود (إله) خالق حكيم وإنما ينسبونها إلى التفاعلات الديالكتيكية لأن « الديالكتيك يعتبر الطبيعة في حالة حركة وتغيير دائمين في حالة تجدد وتطور لا ينقطعان ففي هذه الطبيعة دائماً شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل . والديالكتيك لا يعتبر الطبيعة حوادث بعضها منفصل عن بعض أو أحدها منعزل مستقل عن الآخر بل يعتبر الطبيعة كلاً واحداً متماسكاً تترابط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ترابطاً عضوياً ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة[2] » فكل شيء خاضع للديالكتيك وكل شيء يتطور دون توقف سواء في ذلك عالم المادة الجامدة وعالم الحياة والفكر[3] » وتبعاً لذلك تنسب الشيوعية إلى الديالكتيك وجود الأحياء على هذه الأرض . فالإنسان لم يخلقه الله بل ان جميع الأحياء التي على هذه الأرض لم يخلقها الله وإنما هي نتيجة للتفاعلات الديالكتيكية بل انه لا يوجد هناك خلق أبداً وإن ما تسميه الأديان خلقاً ليس هو في رأي الشيوعيين سوى انتقال من عهد إلى عهد . انتقال في شكل قفزة تتحول في هذه القفزة الكمية إلى كيفية ، إلى لون آخر من ألوان المادة هو الحياة . يقول ستالين شارحاً وجهة النظر الشيوعية في مسألة الخلق ان « الانتقال من عهد

---

(١) صفحة ٨٤ المرجع السابق .

(٢) صفحة ٦ المادة الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

(٣) صفحة ٩٥ هذه هي الديالكتيكية تأليف بول فلكييه .

العالم الفاقد الحس إلى عهد الإحساس من عهد العالم غير العضوي إلى عهد الحياة العضوية هو قفزة إلى حياة جديدة[1] » .

وليبين ستالين معنى القفزة من عهد العالم الفاقد الحس إلى عهد الإحساس يضرب المثل « بالماء المسخن والمبرد فإن نقطة الغليان ونقطة التجمد فيه هما العقدتان اللتان تتم فيهما تحت الضغط العادي القفزة إلى حالة شديدة من التجانس أي تتحول الكمية فيها إلى كيفية [2] » . وهكذا نرى أن هيجل وماركس ينسبان للديالكتيك جميع التطورات ولا يختلفان إلاّ في مصدر ديالكتيك الفكر فهيجل يرجع ديالكتيك الفكر إلى الضرورة وماركس يرجعه إلى انعكاس الواقع الذي تولده الطبيعة . أما بصدد ديالكتيك الطبيعة فيتفقان على أن حركة المادة وصيرورتها تخلقان كل جديد وانهما لا ترتدان إلى التغييرات المتكررة التي تحيل تتابع الظواهر الطبيعية إلى تطور دائري لا ينتهي «كأن تحدث الحرارة الحركة ثم تصبح الحركة حرارة من جديد كما يتلو الليل النهار والنهار الليل بل انه ليحدث في بعض لحظات الصيرورة ازدياد بسيط في الكمية يؤدي إلى تغيير كيفي إما عن طريق ، الفطرة أو عن طريق الثورة . أو قد يحدث العكس[3] » فكل تغيير هو مرور من الكمية إلى الكيفية هو نتيجة التغيير الكمي لكمية الحركة كيفما كان شكلها سواء أكانت ملازمة للجسم من داخله أم مضافة إليه من الخارج . فإن حرارة الماء ليس لها في بادىء الأمر تأثير في حالته من حيث هو سائل لكن إذا زيدت أو انقصت هذه الحرارة جاءت لحظة تعدلت فيها حالة التماسك التي هو فيها وتحول الماء إلى بخار في إحدى الحالات وإلى جليد في الحالة الأخرى[4] فالطبيعة هي محك اختبار الديالكتيك .

من جميع ما تقدم في هذا الفصل نجد صورة للديالكتيك الهيجلي والديالكتيك الماركسي والفروق الأساسية التي تتسم بها وجهة نظر كل منهما على أن

(١) صفحة ١٢ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .
(٢) صفحة ١٢ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .
(٣) صفحة ٩٦ هذه هي الديالكتيكية تأليف بول فلكييه .
(٤) صفحة ١٠ ، ١١ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

كلاً منهما يرى خضوع جميع الأشياء للديالكتيك وإن الديالكتيك ما هو إلاّ تعبير عن جدل الأشياء الفكرية وتفاعلاتها وتناقضاتها . وكل شيء حسب مفهوم الديالكتيك خاضع للصيرورة وكل شيء يتطور دون توقف سواء أكان ذلك الشيء في عالم المادة الجامدة أم عالم الفكر . ولكنا نلاحظ أن ديالكتيك هيجل متطور لأنه يساير الضرورة الإجتماعية .

فعند هيجل كل ضرورة من ضرورات الحياة الإجتماعية تكتسب الواقعية من مقومات وجودها والحاجة إليها وتتلاشى واقعيتها إذا فقدت عنصر الضرورة . على هذا فالضرورة عند هيجل ليست مقيدة بشيء ومن أجل ذلك كان الديالكتيك عند هيجل يساير التقدم العقلي والإجتماعي . أما ديالكتيك ماركس ففيه عيب أساسي هو أن ديالكتيك ماركس يقوم على أسس الديالكتيك الهيجلي في تفسيره للتاريخ ثم يفرض دون مبالاة تفسيراً واحداً ونظرية معينة على جميع الأجيال القادمة مع أن الديالكتيك الذي تقوم على أساسه نظرية ماركس لا يؤيد نظرية واحدة وإلى الأبد .

وفي هذا تقييد للعقل وتعطيل لمفهوم الديالكتيك ، فإذا كانت حركة المادة وصيرورتها تخلقان كل جديد وإذا كانت المادة لا ترتد إلى التغيرات المتكررة التي تحيل الظواهر الطبيعية إلى تطور دائري لا ينتهي .

فإن أبسط قواعد المنطق لا تساعد ماركس على أن يفرض نظرية فلسفية واحدة على جميع الأجيال وفي جميع الظروف . يفرضها على أنها الحقيقة النهائية الأخيرة والأبدية التي لا تتبدل .

فمذهب ماركس يتطرق لتفسير كل شيء تفسيراً يشمل كل شيء ويقدم لنا الخاتمة الأساسية لكل شيء مرة واحدة وإلى الأبد .

وبهذا يناقض المذهب الماركسي قوانين الديالكتيك الأساسية لأن كل شيء حسب المفهوم الديالكتيكي خاضع للصيرورة والتطور من الأدنى إلى الأعلى دون توقف سواء في ذلك عالم المادة وعالم الفكر .

الألوهية والديالكتيك :

عند تعريفنا للديالكتيك ذكرنا أنه يعني بالمعنى الخاص للكلمة : « درس التناقضات في ماهية الأشياء ذاتها » .

وإن نقطة الإبتداء في الديالكتيك قائمة على أن كل أشياء الطبيعة وحوادثها تحوي تناقضات داخلية لأن لها جميعاً جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً وفيها جميعاً عناصر تضمحل وتتطور . فنضال هذه المتضادات هو المحتوى الداخلي لحركة التطور والتوفيق بين هذه المتضادات سواء في مجال الأشياء أو في مجال الفكر يؤلف الديالكتيك .

وإن التطور الديالكتيكي الظاهر في الطبيعة والتاريخ هو الذي يفرض نفسه من الأدنى إلى الأعلى عبر سائر الحركات المتعرجة ومختلف التراجعات الموقتة . وهذا التطور الديالكتيكي .

ليس سوى انعكاس الحركة الذاتية للفكرة المطلقة المتتابعة منذ الأزل بحسب رأي هيجل .

أو انعكاس الأشياء في الذهن بحسب رأي كارل ماركس . بناء على هذا نفهم أن الوجود في مشاقة مع نفسه يحتوي في داخله على عراك تمزق باطني لكنه عراك ينتهي في الخطوة التالية ولا يلبث أن يرفع ثم يعود من جديد وهكذا باستمرار .

من كل ذلك يتضح :

ان موضوع الديالكتيك في الطبيعة لا يتخطى حقل التفاعلات الطبيعية وفي التاريخ لا يتخطى حقل المصادمة بين الآراء واستجابة الفكر للضرورة الإجتماعية عند هيجل .

أو انعكاس الحركة الواقعية في الدماغ البشري عند كارل ماركس . ومن

ذلك نتبين أن الديالكتيك لا يرقى إلى تناول ذات الله . . . ، حتى يجعل منها مسرحاً لتناقضه الذي لا ينتهي لأن مجاله مقصور على بحث الحقائق التي تخضع للحس والتجربة خلال سير التاريخ . سواء أكانت تلك التجربة تستخدم المجهر وآلات البحث في العلوم أم كانت تستخدم معاناة الإنسانية في حياتها المعاشة وتجربتها عبر تاريخها الطويل .

لهذا كان البحث عن ذات (الله) خارج عن نطاق ديالكتيك الطبيعة لأن (الله) فوق أبعاد الطبيعة المحدودة .

أما الوسيلة لمعرفة الله والأدلة القائمة على وجوده إذا وضعت أمام العقل واخضعت للديالكتيك وكانت مرتكزاً لجدله ومناقشته فإن نتيجة هذا الجدل لا تنفي وجود الله . لأن الطبيعة بما فيها من جدل وتناقض تؤخذ دليلاً على وجود الله سبحانه وتعالى ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن مسألة (الإله) هي مسألة العقل ولا يخاطب فيها إلاّ من توفر له العقل . وقد أمرَ النبيﷺ بأن يضع مسألة (الإله) بين يدي العقل موضع الجدل . لأن المدخل لإثبات وجود الله هو العقل .

والعقل ينزع للمناقشة والمجادلة في خطواته نحو الاقتناع بالحقيقة أو الإيمان بها فخاطبه الله سبحانه وتعالى في سورة النحل الآية (١٢٥) بقوله : ﴿ . . . . وجادلهم بالتي هي أحسن . . . . . ﴾ .

المعنى جادلهم المجادلة التي هي أحسن كالدعاء إلى الله بآياته والدعاء إلى حججه . لكن الجدل الذي تشير إليه الآية لا يرادف معنى الجدل الهيجلي أو الماركسي .

لأن كلاً منهما مبني التناقض الدائم للأشياء . و (الله) لا يقع في إثبات وجوده ولا في صفاته هذا التناقض الذي في الطبيعة كما لا تكون ذاته حقلاً للتناقض . أما هذا الجدل الذي يشير إليه القرآن الكريم بقوله :

﴿ . . . . . وجادلهم بالتي هي أحسن . . . . . ﴾

إنما يعني فن الإقناع وعرض الحجج تأييداً للقضية التي أمِرَ بتبليغها النبي ﷺ . في أسلوب حسن ، اسلوب لا يستخدم القسوة ولا التهديد والقهر والقسر . لكن يستخدم توجيه الفكر إلى آيات الله سبحانه وتعالى بل ان هذه الطبيعة نفسها التي هي حقل الديالكتيك وموضع جدله وتفاعلاته تقوم كدليل حي ناطق بوجود الله لأن وجود الطبيعة محسوس ملموس لا ينكره إلاّ فاقد الحس والعقل وبالتالي هذه الطبيعة لا يمكن أن توجد هكذا دون قصد وبمحض المصادفة لأن المصادفة لا يمكن أن تنتج عنها هذه الطبيعة البديعة المنظمة ولقد تحدث عن قضية المصادفة هذه الأستاذ كريستي موريسون أحد علماء الطبيعة الذين يحق للقارىء أن يعتبرهم مثلاً لأصحاب الإيمان المعزز بالعلم .

فقد كان رئيساً لمجمع العلوم بنيويورك وعضواً دائماً من أعضاء مجمع العلوم البريطانية وزميلاً في متحف التاريخ الطبيعي وركناً من أركان مجلس البحوث العلمية .

تحدث الأستاذ كريستي في كتابه الذي سماه (الإنسان ليس وحيداً)[1] عن حقائق الوجود ذاكراً انها لا تقبل التفسير دون إله خالق حكيم مبيناً في كتابه النفيس مدى الضعف البالغ في تعليل الحياة على الأرض بمحض المصادفة . فقال في مفتاح الفصل الأول :

خذ عشرة بنسات كل منها على حدة وضع عليها أرقاماً مسلسلة من واحد إلى عشرة ثم ضعها في جيبك وهزها هزاً شديداً ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من واحد إلى عشرة إن فرصة سحب البنس رقم واحد هي بنسبة واحد إلى عشرة وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين هي بنسبة واحد إلى مائة وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١ ، ٢ ، ٣) متتالية هي بنسبة واحد إلى ألف وفرصة سحب (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) متوالية هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف وهكذا

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمود صالح الفلكي سفير مصر بأمريكا وأسماه العلم يدعو إلى الإيمان .

تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من واحد إلى عشرة هي بنسبة واحد إلى عشرة ملايين والغرض من هذا المثل البسيط هو أن تتبين كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة .

إذن فلا يعقل أن توجد هذه الحياة التي نراها ونحسها بمحض الصدفة لأنه لا بدّ للحياة فوق ارضنا هذه من شروط جوهرية عديدة بحيث يصبح من المحال ـ حسابياً ـ أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة على أي ارض وفي أي وقت لذلك لا بدّ أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد وإذا كان هذا صحيحاً فلا بدّ أن يكون هناك هدف[1] من خلق هذه الطبيعة لأن العقل لا يقبل أن توجد هكذا وبمحض المصادفة وهكذا تفضي بنا مقاييسنا في الحياة العادية إلى الإيمان بوجود (الإله) الخالق لهذا العالم . وهناك عدا هذه المقاييس العادية المألوفة مقاييس صغيرة هائلة في صغرها ومقاييس كبيرة هائلة في كبرها .

هذه المقاييس التي يستخدمها العلم في سبيل التعرف على هذا العالم تؤكد أيضاً أن هذا العالم لا يمكن أن يوجد صدفة .

فنحن في الحياة العادية على هذه الأرض نتخذ فيما نتخذ المتر وحدة للقياس . وتصغر الأشياء فنقول سنتمتر ونقول ملليمتر ويأخذ بيدنا العلم فيخرج بنا على مألوف الأطوال ليدخل المكروبات والذرات فإذا بنا نقسم المللليمتر وهو جزء من ألف من المتر إلى ألف جزء ونحتاج فنقسم هذا الجزء إلى ألف اخرى والمللليمتر بذلك تقسم إلى مليون جزء وتزيد الحاجة إلى ما هو أصغر فنقسم هذا إلى عشرة أجزاء وبذلك نبلغ قطر الذرة .

لكن الأبعاد كما تصغر في الحياة العادية قد تكبر ، وتكبر الأبعاد فنقول بعد المتر الكيلومتر . ونقول الألف كيلومتر والعشرة الآلاف . ونقول الميل وهو (١٦٠٩) من الأمتار ونقول الألف والعشرة الآلاف من الأميال ونخرج من

(١) القرن العشرون للعقاد .

الأرض إلى الشمس وهي تبعد عنا بمقدار (٩٣) مليون ميل . ثم نخرج عن الشمس إلى النجوم فتتكاثر الأرقام في وحدة قياس الميل عبر المسافات . ويقضي الايجاز إتخاذ وحدة جديدة للقياس فنقع على سرعة الضوء نصنع منها هذه الوحدة الكبيرة في القياس ان الضوء يقطع في الثانية الواحدة (١٨٦٠٠٠) ميل ولكن هذا الرقم على كبره غير كاف ليكون وحدة القياس فيما نبتغيه . إذن فلنتخذ ما يقطعه الضوء في الساعة أو في اليوم أو في العام ولكن العام به (٣١) مليوناً ونصف مليون ثانية فأضرب هذه في سرعة الضوء في الثانية تخرج على بعد مقداره (٥,٨٨) مليون مليون ميل أعني (٦) مليون مليون ميل على التقريب .

فهذه هي وحدة القياس قياس الأبعاد فيما بين النجوم ونسميها اصطلاحاً بالسنة الضوئية وهو اسم ظاهره يدل على أننا نقيس زمناً ولكننا في الواقع ما نقيس إلاّ بعداً . إننا نعني بالسنة الضوئية المسافة التي يقطعها الضوء في عام . فإذا قلنا ان نجماً يبعد عنّا عشرين سنة ضوئية فمعنى هذا انه يبعد عنا (٦ × ٢٠ = ١٢٠) مليون مليون ميل . معنى هذا أنه لو ارسل إلينا شعاعاً من نوره لما وصل إلينا إلاّ بعد عشرين عاماً[1] وان الضوء لا يقطع هذه الأبعاد بمعزل عنا اننا نسايره فنحن معه بالمراصد الكبيرة والمقربات . نحن مع الضوء بأبصارنا وفكرنا وعقولنا ونحن مع الضوء في اجتيازه لجميع هذه الأبعاد .

وأننا في مسايرتنا لهذه الابعاد، الصغير منها المتناهي في صغره والكبير منها لم نعثر على تعليل لهذا الوجود . وهذه الحياة حتى نلغي فكرة (الله) نهائياً ونستغني عنها بل اننا نعود من هذه الأبعاد ونحن أكثر ايماناً وأقوى يقيناً بوجود الله . ولقد قال العلامة انشتاين بعد أن لاحظ وجرب وساير العلم في خطواته :

« ان اعظم جائشة من جائشات النفس واجملها تلك التي تستشعرها النفس عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والظلام ان الذي لا تجيش نفسه لهذا

---

(١) صفحة ٢١٨ - ٢١٩ مع الله في السماء تأليف دكتور أحمد زكي .

تتحرك عاطفته حي كميت . . . انه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه وظلام لا نستطيع أن نطلع فجره ومع هذا فنحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة احكم ما تكون ونحس وراءه شيئاً هو الجمال اجمل ما يكون .

وهي حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركه عقولنا القاصرة إلاّ في صورة لهما بدائية أولية . وهذا الإدراك للحكمة وهذا الإحساس بالجمال في روعة هو جوهر التعبد عند الخلائق . وأن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبل حافز ».

ويقول العلامة انشتاين أيضاً إن ديني هو إعجابي في تواضع بتلك الروح السامية التي لا حدّ لها تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة والقليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة قدرة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للافهام .

إن هذه الايمان يؤلف عندي معنى الله [1].

---

(١) صفحة ٢٦٠ - ٢٦٦ مع الله في السماء تأليف دكتور أحمد زكي .

مراجع الفصل الأول

١ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .	تأليف جوزيف ستالين
٢ ـ المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي	تأليف كيدروف
٣ ـ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية	تأليف فردريك انجلز
٤ ـ التفسير الإشتراكي للتاريخ مختارات من ماركس وانجلز	اختارها وترجمها دكتور راشد البراوي
٥ ـ القرن العشرون ما كان وما سيكون	تأليف عباس محمود العقاد
٦ ـ مع الله في السماء	تأليف دكتور أحمد زكي

الفصل الثاني

الدين في نظر الشيوعيين .
موقف الشيوعيين من الدين .
سخرية الشيوعيين من الدين .
الأدلة على وجود الله .
الإسلام دين العقل .

الدين في نظر الشيوعيين

نود في هذا الفصل أن نعرض للقارىء رأي الشيوعيين في الدين ولن نضع بين يدي القارىء إلاّ آراء أئمة الشيوعية . كارل ماركس ـ وفردريك انجلز ولينين وستالين ـ ذلك لأن آراء هؤلاء تمثل الأساس الأيدلوجي للشيوعية . يقول فردريك انجلز: «فلنقف قليلاً عند الدين لأنه أبعد الأشياء عن الحياة المادية ويلوح غريباً عنها أكثر من أي شيء آخر لقد نشأ الدين بصورة كلية في عصر موقل في القدم من تصورات الناس البدائية المليئة بالأخطاء المتعلقة بطبيعتهم الخاصة والطبيعة الخارجية المحيطة بهم .

بيد أن كل ايدلوجية ما ان تنشأ حتى تتطور على أساس موضوع التصور المعطى وتغنيه وإلاّ فهي لا تكون ايدلوجية . لا تكون ملاحقة للفكر بصفتها وحدات تحيا حياة مستقلة وتتطور بصورة مستقلة دون أن تخضع لسوى قوانينها الخاصة [1] » .

فانجلز يرى أن الدين نشأ من تصورات الناس البدائية . وان ايدلوجية الدين تكاملت خلال سير التاريخ بل أكثر من ذلك أن انجلز عندما يتحدث عن علاقة الفكر بالكينونة يحقر من شأنها يقول: «إن مشكلة علاقة الفكر بالكينونة أي علاقة الروح بالطبيعة هي المشكلة العليا في كل فلسفة جذورها في المفاهيم الجاهلة المحدودة الأفق السائدة في عصر التوحش . هذه المشكلة اتخذت هذا الشكل الحاد . . هل خلق الله العالم أم أن هذا العالم وجد منذ الأزل ؟ [2] » .

(١) صفحة ١٠٢ - ١٠٣ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف انجلز .
(٢) صفحة ٥١ - ٥٢ المصدر السابق .

وعندما يجيب انجلز على هذه المسألة يقول :

« إن الطبيعة توجد وجوداً مستقلاً » وهي الأساس الذي نشأنا عليه نحن البشر وترعرعنا ونحن انفسنا نتاج لها وليس ثمة شيء خارج على الطبيعة [1] » ولا يخفى أن هذه ليست إجابة يقتنع بها العقل وليس هذا تعليلاً يبرر وجود الطبيعة هكذا دون موجد . فإن كل موجود لا بدّ له من موجد والطبيعة شيء موجود محسوس ويستحيل عقلاً أن توجد هكذا دون موجد . والله هو الموجد لها لكن انجلز يرى أن الله لا وجود له بل هو من نسج الخيال فيقول :

« وما الكائنات العليا التي خلقتها خيالاتنا وأوهامنا الدينية سوى الإنعكاس الوهمي لكينونتنا الخاصة [2] » « فمنذ الأزمنة السحيقة حين كان البشر لا يزالون جاهلين طبيعة بنيتهم الفيزيائية الخاصة وحين كانت مخيلاتهم عرضة لاستثارة الأحلام لها فقد انتهوا إلى الاعتقاد بأن افكارهم واحساساتهم لم تكن فاعلية منشؤها جسدهم الخاص بل نفس متميزة تقطن هذا الجسم وتغادره ساعة الموت .

منذ ذلك الزمان لم يكن لهم بد من صنع فكر عن علاقة النفس بالعالم الخارجي « ويضيف انجلز إلى ذلك » وهكذا نشأت الالهة الأولى أيضاً بطريق تشخيص القوى الطبيعية ثم اخذت خلال تطور الدين اللاحق صورة تخرج أكثر فأكثر عن نطاق العالم الأرضي إلى أن ولدت هذه الالهة العديدة . وهي ذات سلطة ضعيفة على درجات متفاوتة وسلطة كل منها تحد من سلطة الالهة الأخرى . خلال عملية طبيعية من التجريد ـ كدت أقول من التقطير ـ أقول ولدت في عقول الناس مفهوم (الإله) الواحد المنفرد الذي بشرت به الأديان التوحيدية [3] » بهذا الرأي ينتهي فردريك انجلز زميل ماركس وأحد مؤسسي الشيوعية في مسألة (الإله) وإذا ناقش انجلز مفهوم الإله عند هيجل عمد إلى ترديد قول فيورباخ : «إن الوجود قبل

---

(١) صفحة ٤٧ المرجع السابق .

(٢) صفحة ٤٧ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .

(٣) صفحة ٥٠ - ٥١ المصدر السابق .

الأرضي الذي قال به هيجل إن هو إلاّ بقايا وهمية للإيمان بخالق فوق أرضي وإن العالم المادي الذي تدركه حواسنا والذي ننتمي إليه نحن انفسنا هو الحقيقة الوحيدة وان شعورنا وفكرنا مهما ظهرا لنا متعاليين ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ [1] » فالله عند انجلز فكرة لا غير وليست هذه الفكرة سوى نتاج الدماغ واختراعه اذن فالله ما هو إلاّ نتيجة وهمية لتأمل الفكر وليست له حقيقة في الواقع ونفس الأمر ويقول انجلز أيضاً :

« وإن الفكر هو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال أو بتعبير أدق إن الفكر هو نتاج الدماغ وإن الدماغ هو عضو التفكير فلا يمكن بالتالي فصل الفكر عن المادة دون الوقوع في خطأ كبير » .

ويضيف انجلز إلى ذلك: «ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا والذي ننتمي إليه نحن أنفسنا هو الواقع الوحيد أما إدراكنا وفكرنا مهما ظهرا لنا رفيعين ساميين فليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ » . إلى أن يقول : «فلا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة فإن هذه المادة هي جوهر كل التغيرات التي تحدث [2] » .

وانجلز إنما يقصد بقوله: «لا يمكن فصل الفكر عن المادة » إن حصيلة ما في الدماغ البشري من تفكير ما هو إلاّ انعكاسات للأشياء المادية وبناء على ذلك يذهب انجلز إلى أن (الإله) إضافة غريبة عن العالم فيقول: «إن الفهم المادي للعالم يعني بكل بساطة فهم الطبيعة كما هي دون أية إضافة غريبة [3] » .

فإذا تحدث ستالين عن مسألة الإله قال: «إن العالم بطبيعته مادي وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة وان العلاقات المتبادلة بين

---

(١) صفحة ٥٦ ـ ٥٧ المصدر السابق .

(٢) صفحة ١٨ - ١٩ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف جوزيف ستالين ترجمة خالد بكداش .

(٣) صفحة ١٧ المادية الديالكتيكية لستالين .

الحوادث وتكييف بعضها بصورة متبادلة كما تقرر الطريقة الديالكتيكية هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة وان العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأي إله » .

ثم يستشهد بكلام لينين فيقول: «لقد كتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيراقليطس الذي جاء فيه » . . . . «إن العالم واحد لم يخلقه أي (إله) ولا إنسان وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفىء تبعاً لقوانين معينة . . . . » فقال « يا له من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية [1] » .

---

(١) صفحة ١٧ المادية لستالين .

موقف الشيوعيين من الدين

هذا هو رأي الشيوعيين في الإله والدين .

فهم كما ترى يذهبون إلى أن جميع الأديان بشرية نشأت نشأة تاريخية نتيجة للظروف الطبيعية والإجتماعية .

وإن الله لا وجود له في الحقيقة والواقع بل انه مفهوم أو فكرة مجردة تقوم في العقول البدائية .

ولكن هل تنتهي مسألة الإله عند مجرد إبداء الرأي ضد الدين ؟ أم أن للشيوعيين موقف مع الأديان ؟ .

الواقع الذي لا شك فيه أن للشيوعيين موقف مضاد للدين وما علينا الآن إلاّ أن نتابع في الفقرات التالية موقفهم من الدين لنتبين الحقيقة .

يقول فردريك انجلز :

« لقد وجه النضال الرئيسي ضد الدين[1] » ويضيف إلى ذلك قوله : «إن القصد من هذا النضال بصورة مباشرة حاسمة تدمير الأديان[2] » ويقول ماركس « أن مهمة الفلسفة هي تحويل محاربة الدين إلى محاربة الشروط الموضوعية التي تخلق الدين[3] » .

---

(١) صفحة ٤٦ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .

(٢) صفحة ٤٥ المرجع السابق .

(٣) صفحة ٢٣ كارل ماركس موجز لقصة حياته .

كأنما الدين مخلوق لشروط معينة فإذا ما حوربت وانتهت انتهى الدين ويؤكد ستالين بأن الشيوعية نادت « بنبذ كل نظرية ايمانية على الإطلاق[1] » معززاً بقوله هذا ما جاء في البيان الشيوعي من أن « القانون والقواعد الأخلاقية والدين ما هي إلاّ أوهام برجوازية تكمن خلفها مصالح برجوازية[2] » بل إن الإيمان (بالله) اصبح جريمة في نظر الشيوعيين يتهم بها حتى قال ستالين: « لقد اتهم لينين بوغدانوف وبازاروف وبوسكيفتيس وانصار ماخ الآخرين بالالمانية [3] » .

ويضيف ستالين إلى ذلك هذا القول ليعرف الالمانية بأنها « نظرية رجعية تضع الايمان فوق العلم[4] » !!! .

---

(١) صفحة ٢٣ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .
(٢) صفحة ٤٢ البيان الشيوعي تأليف ماركس وانجلز .
(٣) صفحة ٢٢ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية .
(٤) صفحة ٢٢ المرجع السابق .

سخرية الشيوعيين من الدين

ولنلاحظ في الفقرات التالية صورة قلمية ساخرة تبين الأبعاد التي يخططها انجلز لمفهوم الدين .

فمرة يرى انجلز في الدين صورة للحب الجنسي يقول: «الدين . . . . هو العلاقة العاطفية بين إنسان وآخر تلك العلاقة التي ظلت تفتش عن حقيقتها حتى هذا اليوم في انعكاس وهمي للواقع في تدخل إله واحد أو آلهة متعددة إن هي سوى انعكاسات وهمية لصفات إنسانية بيد أنا نجد هذه الحقيقة الآن مباشرة وبدون وساطة في المحبة القائمة بين الأنا والإنت . وهكذا يصبح الحب الجنسي . . . . في نهاية الأمر من أرفع الصور إن لم يكن ارفعها جميعاً[1]» إلى أن قال : « لقد اكتفت الأديان الوضعية القائمة بمنح تقديسها الاسمى لتنظيم الدولة للحب الجنسي أعني تشريع الزواج فهي قد تختفي جميعاً في الغد دون أن يطرأ أي تغيير طفيف على ممارسة الحب والصداقة . وهكذا اختفى الدين المسيحي فعلاً في فرنسا بصورة تامة منذ سنة ١٧٩٣ م حتى سنة ١٧٩٨ م . حتى أن نابليون نفسه لم يستطع إدخاله من جديد دون أن يلقى مقاومة ويتعرض لصعوبات وفي هذه الفترة لم يشعر الناس بأية حاجة إلى معادل له[2] » .

ومرة يدعي أن مفهوم الدين لم يبق منه سوى المدلول اللغوي لكلمة رابطة فيقول: «إن لفظة الدين مشتقة من اللفظة اللاتينية (Religdre) وتعني في الأصل

---

(١) صفحة ٦٧ لودفيج فيورباخ لانجلز .

(٢) صفحة ٦٨ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .

(رابطة) . وعليه تكون كل رابطة بين انسانين ديناً » ثم يضيف انجلز إلى ذلك قوله «إن مثل هذه الألاعيب التي تتوصل للخداع بأصول الكلمات هي آخر ما تلجأ إليه الفلسفة المثالية . فما يهم عندها ليس معنى الكلمة وفقاً للتطور التاريخي في استعمالها الواقعي بل معناها وفقاً لأصلها الاشتقاقي . وهكذا يرقى الحب الجنسي والعلاقة بين الجنسين إلى مرتبة الدين لكي لا تتعرض كلمة الدين العزيزة الذكرى المثالية للإختفاء من قاموس اللغة [1] » .

ولا يخفى أن فهم الدين على هذا النحو يدل على كثير من السذاجة إن لم نقل على كثير من الضحالة في التفكير لأن الدين لا يستمد حقيقته من اللغة والمدلول اللغوي بل يستمدها من وجود الإله .

ومرة يرى انجلز أن الحركات التاريخية التي تحمل طابعاً دينياً إنما تشكلت بصورة اصطناعية في سيرها عبر التاريخ فيقول : « نحن لا نشاهد حركات تاريخية شاملة تحمل طابعاً دينياً إلاّ بالنسبة لهذه الأديان العالمية العظمى التي تشكلت بصورة اصطناعية اكثر أو أقل وخاصة بالنسبة للمسيحية والاسلام[2] » .

فإذا تعرض انجلز لقضية الخَلق خَلق الإنسان وإيجاده من العدم لم يناقش هذه القضية بأسلوب علمي ينثر الحجج ويدلل على استحالة هذا الخلق والإيجاد من العدم بل يناقشها بصورة تنطوي على كثير من العجز . فيقول عن الإنسان « . . . . هذا الذي تحدثوا عنه طويلاً في فلسفة الدين ذلك أن هذا الإنسان لم يولد من أحشاء أمه بل خلقه إله الأديان التوحيدية[3] » من هذا نعلم أن انجلز يقرر أن الإنسان لم يخلقه (الله) وذلك بادعائه فقط أن الإنسان ولد من أحشاء أمه !! .

إن انجلز لم يثبت هذا الإدعاء بأسلوب علمي يساير المنطق فيحدثنا عن كيفية وجود أول أم تسلسل منها هذا النوع الإنساني حتى نقتنع معه بأن الإنسان لم يخلقه إله الأديان التوحيدية .

---

(١) صفحة ٦٩ المرجع السابق .
(٢) صفحة ٦٩ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٧٣ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف فردريك انجلز .

الأدلة على وجود الله

وقفنا فيما سبق على رأي الشيوعيين في مسألة (الله) وفي (الدين) فهَل هذا الرأي يطابق العقل والحق والمنطق في قضية الإيمان بالله ؟ الواقع إن مسألة وجود الله مسألة بديهية ولهذا يستخدم الدعاة لها منطق البديهة في المنطق الإنساني .

ولهذا تشير قصة نوح حين قال له قومه: «ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أرازلنا بادي الرأي » فقوم نوح قالوا له ان الذين تبعوك إنما هم أرازلنا الفقراء الضعفاء المحقرون فينا وهم لم يتبعوك إلاّ للرأي الذي بدا لهم أول وهلة [1] » .

فهذا الرأي البادي الذي ترتبط به الاستجابة للإيمان ليس بالرأي الخاطىء ولا بالرأي الضعيف الذي يذهب ويتلاشى مع تقدم العقل الإنساني ذلك : لأن أهم عناصر الديانات عنصران الأول (عنصر بدء الخلق) أي احداث المادة من العدم والثاني (عنصر الربوبية) أو العناية المستمرة بالمخلوقات . فالأديان كلها قائمة على فكرة التمجيد لقوة هائلة خالقة لهذا العالم وهذه القوة لها صلة بالحوادث اليومية ولها عناية دائمة بالكائنات لا تنفك عن إمدادها وتدبيرها وذلك هو أصل فكرة العبادة التي لا يتحقق اسم الديانة دونها [2] .

أما بالنسبة لعنصر بدء الخلق :

فإن قانون السببية يقرر أن شيئاً من الممكنات مثل وجود الحيوان على الأرض

---

(١) صفحة ١٦ مع الله في السماء

(٢) صفحة ٥٤ الدين تأليف دكتور دراز .

لا يحدث بنفسه من غير شيء محدث له ، لأن هذا الحيوان لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ولا ينفرد باحداث شيء لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو . وذلك تماماً مثل الصفر الذي لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي .

إذن فلا بدّ للحيوان في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره . فلا مفر من الإنتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب وسبب الأسباب[1] هو الله سبحانه وتعالى .

أما قانون الغائية فيقرر .

« إن كل نظام متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث من غير قصد . وان كل قصد لا بدّ أن يهدف إلى غاية وان هذه الغاية إذا لم تحقق إلاّ مطلباً جزئياً إضافياً متقطعاً تشوقت النفس من وراء هذه الغاية إلى غاية اخرى حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات ».

نعم ان طاقة البشر وطبيعة المخلوق أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب والغايات مرحلة مرحلة وتتابع سلسلتها حلقة حلقة حتى تشهد بداية العالم ونهايته ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء وغاياتها الأخيرة واعلنت عدولها عن هذه المحاولة ولكن هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً من ماضيها ومستقبلها يقابله يقين إجمالي ينطوي كل عقل على الإعتراف به طوعاً أو كرهاً .

وهذا اليقين الإجمالي انه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة والغايات الجزئية سواء فرضت متناهية أم غير متناهية فإنه لا بدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء والغاية الحقيقية التي ليس بعدها شيء وإلاّ

(١) صفحة ٩٩ - ١٠٠ المصدر السابق .

لبقيت كل هذه الممكنات في طي الكتاب والعدم « إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل » أو لبقيت لغزاً وعبثاً غير معقول « إن لم تكن لها غاية تنقطع بها لجاجة النفس ويستقر مضطربها » .

نقول إن وجود هذه الحقيقة الأولى وهي عنصر بدء الخلق ضرورة عقلية لا مناص من التسليم بها . ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متى فكر قليلاً في الوضع الذي يؤول إليه إنكارها . اللهم إلاّ إذا فرضنا أن المدعوين للنظر في هذه الحقيقة كائناً اخرق لا يذعن لقواعد المنطق والحساب ولا يبالي أن ينكر كل شيء يصح في الأذهان[1] .

فإذا ثبت أن وجود الحقيقة الأولى وهي عنصر بدء الخلق ضرورة عقلية لا مجال للمكابرة فيها ثبت بالتالي وجود الإله وثبوت وجود الإله يثبت العنصر الثاني **وهو عنصر الربوبية** .

وهكذا يصبح وجود الإله والربوبية حقيقة واقعية لا يمارى فيها إلاّ من لا عقل له . وتصبح قضية (الإله) قضية الحقيقة والعقل . فمن هجم فيها فإنما يهجم على عقله ووجدانه ومن دافع فيها فإنما يدافع عن عقله ووجدانه . ومن ظن أن طائفة من الناس احق بالهجوم والدفاع فقد نزل عن حقه في وجوده وحياته وعن حقه في استطلاع أسرار الوجود والحياة فيما حوله وهذا اكبر ما للحي العاقل من حقوق[2] .

وهكذا تصبح قضية الإيمان بالله قضية الوعي والعقل : الوعي بسير هذه الحياة والتساؤل عن سبب وجودها وغايتها . ومسايرة العقل فيما يدركه الوعي ويتمثله ويلح في الإجابة عليه .

---

(١) صفحة ١٠٠ - ١٠١ الدين تأليف دكتور دراز .
(٢) صفحة ١٣٣ القرن العشرون ما كان وما سيكون للعقاد .

الإسلام دين العقل

إن قضية الإيمان بالله في الإسلام هي قضية العقل . والعقل وحده هو المدعو للنظر فيها والبحث عن صدقها ثم الإستجابة لها . بل إن الذي يؤمن بالله في الإسلام تبعاً وتقليداً للآخرين ودون أن يستخدم فكره ودون أن يستجيب لحكمه العقلي فإن ايمانه مردود ولن يقبل منه . ومن هنا كان التفكير في الإسلام من الفرائض المحتمة .

« والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلاّ معظماً له ومنبهاً إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية بل تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله . أو يلام فيها المفكر على إهماله عقله وقبوله الحجر عليه والقرآن الكريم لا يذكر العقل عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له في كتب الأديان الأخرى » . فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : (الآية ١٦٤)

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وفي سورة الأنبياء : (الآية ٦٧).

﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

وفي القرآن الكريم يتكرر الخطاب إلى العقل وذلك لأن العقل معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان والقرآن الكريم إنما يلجأ إلى التذكير بالعقل لأن العقل خير مرجع للهداية في ضمير الإنسان[1] « وهو في كثير من آياته يستحث العقل للنظر في قضية الإيمان بالله » لأن العقل في شرعة الإسلام يبتغي الحقيقة حيث كانت ولا يحجم عن المعرفة حيث أصابها ولا يقيم فوقه أو بين يديه باباً مغلقاً دون قبس من النور يريه ما لم يكن يراه أو يزيده بصيرة بما رآه [2] .

والفكرة الإلهية في الإسلام (فكرة تامة) لا يتغلب فيها جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ولا تجعل لله مثيلاً في الحس ولا في الضمير بل لله (المثل الأعلى) وليس (كمثله شيء) فالله وحده (لا شريك له) . . (ولم يكن له شركاء في الملك) (فتعالى الله عما يشركون) [3] .

والذات الإلهية في الإسلام هي غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات فلله وحده (المثل الأعلى) هو الواحد الصمد الذي لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) (وسع كرسيه السموات والأرض) (إلاّ أنه بكل شيء محيط) .

وقد جاء الإسلام بالقول الفصل في مسألة البقاء والفناء ، فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفاني صورة اقرب للكمال من صورتهما في العقيدة الإسلامية لأن العقل لا يتصور وجودين ساديين كلاهما غير مخلوق أحدهما مجرد والآخر مادة وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء .

ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلق وجوداً زمانياً أو يتصور وجوداً يدوم ووجوداً يبتدىء وينتهي في الزمان[4] فبقاء المخلوقات بقاء في الزمن وبقاء الخالق بقاء أبدي

---

(١) صفحة ١٠ - ١١ التفكير فريضة الإسلام للعقاد .
(٢) صفحة ١١ التفكير فريضة الإسلام للعقاد .
(٣) صفحة ١٤٦ الله للأستاذ العقاد .
(٤) صفحة ١٤٨ المرجع السابق .

سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل لأنها كلها في حدود الحركة . والحركة والانتقال من تصور أبناء الفناء ولا يجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا إنتقال . فالله (هو الحي الذي لا يموت) (وهو الذي يحيي ويميت) (وكل شيء هالك إلاّ وجهه) ولا بقاء على الدوام إلاّ لمن له الدوام ومنه الإبتداء وإليه الانتهاء[1] والمخلوقات تحتاج لله في كل آن والله يمدها بما تحتاج إليه .

وهكذا جاء محمدﷺ بصورة عن الإله (تامة) في العقل والشعور[2]. صورة لا تنقضها العلوم الطبيعية ولا يزعزعها تقدم العلم والمعرفة .

والعلوم الطبيعية نفسها ليس من شأنها أن تخول اصحابها حق القول الفصل في المباحث الإلهية . والمسائل الأبدية لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ومن جهة اخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات وهي بعد هذا وذاك تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الموجود لأن جوهر الموجود لا يدخل في تجارب علم من تلك العلوم . فالبيلوجي يدرس أعضاء الجسم الحي ولكنه لا يستطيع بعلمه أن يبين أسباب الاختلاف بين الخلية الحية والخلية الميتة والخلية الجامدة ولا يستطيع أن يقرر ماهية الحياة . لأن أعمال الأعضاء شيء والقوة التي تعمل بها تلك الأعضاء شيء آخر لا يدخل في نطاق البيلوجية التي يتعلمها أقدر المشرحين والعارفين بتركيب الأجسام الحية .

وإذا قرر العالم البيلوجي أن المادة قابلة لتوليد الحياة فهو لا يقرر ذلك في حدود علمه بل يقرره في حدود ظنه وتقديره . ويجوز لعالم المعادن بمثل هذا الحق أن يقرر أن المادة لا تمثل خاصة الحياة لأنه درس ذرة المادة في صورتها المعدنية دراسة العلماء .

إذن فالعلم الطبيعي لا يحق له الفصل في المسألة الإلهية لكن العالم الطبيعي

---

(١) صفحة ١٤٨ الله للعقاد .

(٢) صفحة ١٤٩ الله للأستاذ العقاد .

يحق له إبداء الرأي في هذه المسألة بحق العقل والدليل والبديهة الواعية لأنه إنسان يمتاز حقه في الإيمان بمقدار امتيازه في صفات الإنسان .

أما العلم نفسه فلا غنى له عن البديهة الإنسانية في تلمس الحق بين مجاهل الكون وخوافيه[1] وما قضى به الواقع واتفق عليه المفهوم والمحسوس أن لا يكتفى بالعقل وحده ولا بالعلم وحده في الايمان بالكائن الذي يستحق الإيمان وأن نعلم أن ثقة البديهة متمم لا غنى عنه لوظيفة العقل والعلم في معرفة الله[2] وأن الكشوف العلمية لا تطوي صفحة الدين إلاّ إذا أسيء وضع القضية وفهم الدين على أنه بضاعة فئة من الناس يروجونها ولا يحفل أحد غيرهم برواجها أو كسادها بل عليهم أن يحترسوا منها كما يحترس المشتري من تاجر ماكر يبيعه ما لا يحتاج إليه .

ولكن إذا وضعت قضية الدين موضعها وفهمت على أنها قضية الوجود والحياة فكل ما كشفه العلم وما سيكشفه في المستقبل خليق أن ينشر منها كل يوم صفحة جديدة ويفتح منها كل مرة باباً لم يكن قبل ذلك بمفتوح للباحثين [3] .

وقد قال العلامة هرشل في القرن الثامن عشر كلما اتسع نطاق العلوم كثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة . وما العلماء الطبيعيون والكيماويون وعلماء الفلك إلاّ بناة لمعابد العلوم التي يسبح فيها للخالق العظيم [4] .

فلنتابع بعض هؤلاء العلماء في هذه المعابد لنرى ما توصلوا إليه في مسألة وجود الله . تحدث الدكتور أ ـ ج كرونين عن الحقيقة الإلهية فقال: «إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته لا بدّ أن نفكر في إله خالق .

من ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية

(١) صفحة ٢٣٦ ، ٢٣٧ الله للعقاد .
(٢) صفحة ٢٣٩ المصدر السابق .
(٣) ١٣٤ ، ١٣٥ القرن العشرون للعقاد .
(٤) صفحة ١٩ الله والعلم الحديث ـ نوفل .

تتألق بعيداً ثم يؤمن بأن هذا الكون كله يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء ؟ فعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منظمة وفصول متتابعة لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة نزعت من الشمس والقيت في الفضاء بلا معنى أو بلا سبب . انظر وابحث في العالم واطرح كل ما قالته الكتب المقدسة وتتبع سير الحياة فإنك ستواجه لغزاً غامضاً وسراً عميقاً فلا يمكن أن يكون هذا نشأ من العدم. فلا شيء يخرج من لا شيء[1]» كذلك تحدث عالم الذرة (آرتولوميتون) الذي حاز جائزة نوبل في الفيزيقيا للكشوف الذرية فقال: «لست في معملي اعني بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت ولكني أصادف في كل يوم قوى عاقلة تجعلني احس إزاءها أحياناً بأنه يجب أن أركع احتراماً لها [2] ».

ويقول الأستاذ بليفن: «ان الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لا حصر لها والتي تندفع في جميع الإتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه .

ولكن يبدو أن الأجدر بأن يبهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الحيوان البشري الضئيل الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صغير في زاوية حقيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها . هذا الحيوان يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف سر الكون [3] » .

ويدلل الأستاذ كريستي مورسون الذي كان رئيساً لمجمع العلوم في نيويورك على الحقيقة الإلهية بقوله عن الناسلات أنها تبلغ من الدقة أن جميع الناسلات التي يتولد منها سكان الكرة الأرضية لو وضعت في حيز واحد لما زادت على قمع الخياطة ولكنها كانت في كل خلية حية وفي طواياها أسرار الخصائص التي يتصف بها جميع

---

(١) صفحة ٢٣ الله والعلم الحديث ـ نوفل .
(٢) صفحة ٢٤ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٣٢- ٣٣ المرجع نفسه .

الآدميين .. وإن قمع خياطة لحيز صغير تحتوي فيه جميع خصائص الأفراد الموزعة بين ألفي مليون من البشر .

ولكنه واقع لا ترقى إليه الشكوك . فكيف إذاً تنطوي في هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المختلفة من حشود الأسلاف وتستبقي لكل فرد مقوماته النفسية في مثل هذا الحيز الذي بلغ الغاية من الدقة والصغر[1] . وهكذا اثبت العلم أن الإنسان يتكون في أصله من خلية واحدة هذه الخلية تكون الصلب من العظام ونصف الصلب من الغضاريف والرخو من اللحم وهي نفسها تكون اللزج من الأنسجة والسائل من الدماء وتكون نفسها طبقات الجلد الرقيقة وأهداب العين الدقيقة . هذه الخلية يتكون منها زيادة على ذلك السمع والبصر والفؤاد . وينشأ منها الطويل والقصير والأبيض والأسود وهذه الخلية عبارة عن حياة معقدة أمكن للعلم أن يكتشف مكنوناتها وتراكيبها ويقيس حركتها وتحليل مادتها وطريقة انقسامها أما سر الحياة فيها فهو ما وقف العلم والعلماء عنده يعترفون بأن هنا . . . الله [2] .

ولا شك أن آراء العلماء والفلاسفة إنما هي سند للإيمان الديني يعززه ولا يخلقه ما لم يكن له سند في بديهة الإنسان . فهذه البديهة تسعى سعيها وتتلمس طريقها في هذا العصر كما تلمسته فيما غبر من عصور التاريخ وستعمل ما تستطيعه وتتزود من العلم والفلسفة بما يصلح لها من زاد تسيغه[3] ولا ننسى عمل (الشخصية الإنسانية) في الهداية الروحية فإن العقيدة تظل معنى من المعاني يحوم عليه الذهن كما يحوم على حقائق الرياضة والحكمة ما لم تتمثل في (شخصية) محبوبة موقرة تنقلها إلى الحياة بما تبعثه من الثقة وتوحيه من القداسة التي تقرب السماء من الأرض . وتعقد الصلة بين الحياة الأبدية التي لا حدود لها وبين هذا

---

(١) صفحة ٢٤٣ - ٢٤٤ الله للعقاد .

(٢) صفحة ٤٦ الله والعلم الحديث ـ نوفل .

(٣) صفحة ١٥٣ القرن العشرون للعقاد .

العالم المحدود . كذلك كانت رسالة الأنبياء وكذلك تكون الرسالة من الهداة المصلحين الذين يتمرسون آثار الأنبياء في دعواتهم إلى الخير والكمال [1].

وان التدين لا ينتهي عند ابتداء التعقل والدراية بل ان المعرفة تبلغ بالعقل الإنساني غاية مداه فتطرق له أبواب الإيمان [2] .

وهكذا مضت عدة قرون ولم يبتعد العقل في القرن العشرين من الإيمان بمقدار نصيبه من المعارف والكشوف بل هو أحرى أن يبتعد من الانكار كلما اطلع على كشف جديد من كشوف العلم الحديث [3] .

---

(١) صفحة ١٥٤ المصدر السابق .

(٢) صفحة ١٥٥ المرجع السابق .

(٣) صفحة ١٣٦ القرن العشرون ما كان وما سيكون تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد .

مراجع الفصل الثاني

١ ـ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية تأليف فردريك انجلز

٢ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف جوزيف ستالين

٣ ـ كارل ماركس موجز لقصة حياته مستخرج عن دائرة المعارف السوفيتية

٤ ـ البيان الشيوعي تأليف ماركس وانجلز

٥ ـ الدين تأليف دكتور محمد عبد الله دراز

٦ ـ القرن العشرون ما كان وما سيكون تأليف عباس محمود العقاد

٧ ـ التفكير فريضة إسلامية تأليف عباس محمود العقاد

٨ ـ الله تأليف عباس محمود العقاد

٩ ـ مع الله في السماء تأليف دكتور أحمد زكي

١٠ ـ الله والعلم الحديث تأليف دكتور عبد الرزاق نوفل

الفصل الثالث

المادية التاريخية :

تطور القوى المنتجة عند الشيوعيين :

علاقات الإنتاج عند الشيوعيين :

١ ـ المشاعية الإبتدائية .

٢ ـ الرق .

٣ ـ النظام الإقطاعي .

٤ ـ النظام الرأسمالي .

٥ ـ النظام الشيوعي .

نقد وملاحظة .

المادية التاريخية

يعرف ستالين المادية التاريخية بأنها النظرية التي توسع نطاق مبادىء المادية الديالكتيكية حتى تشمل دراسة الحياة الإجتماعية وتطبق هذه المبادىء على حوادث الحياة الإجتماعية أي على درس المجتمع وعلى درس تاريخ المجتمع [1] «لأن المجتمع يتكون من أفراد ذوي قوة عاقلة رشيدة وهم يعيشون فيما بينهم وفي أحضان قوى الطبيعة وتتأثر بهم ويؤثرون فيها وتؤثر فيهم وهي تغيرهم وهم يغيرونها فبين الناس وقوى الطبيعة علاقات متبادلة ، من أفعال وردود أفعال متداخلة . ومن الأفعال وردود الأفعال التي بين الطرفين تتحد الظروف التي يعيش فيها الناس وتنبعث مراحل تطور التاريخ الإنساني [2]» ولأن العلاقات بين الناس والطبيعة دائمة التغير وينتابها التعديل كذلك النتائج المترتبة عليها لا تكون ثابتة غير متحولة وهكذا يتضح أن تاريخ الجنس البشري عملية متصلة من التطور يشترك فيها وعلى مسرحها طرفان الطبيعة والإنسان .

ويقرر ماركس وانجلز في البيان الشيوعي أن « مفهومات الشيوعية لا ترتكز مطلقاً على أفكار أو مبادىء اكتشفها أو اخترعها هذا أو ذاك من الذين يدعون مصلحين عالميين فما هي سوى التعبير الإجمالي عن العلاقات الراهنة المنبثقة عن نضال طبقي قائم على حركة تاريخية تجري أمام اعيننا [3] » .

ويشرح لينين هذا النضال الطبقي فيقول «إن الشيوعية تنشأ عن الرأسمالية

---

(١) صفحة ٣ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ـ ستالين .
(٢) صفحة ١٦ التفسير الإشتراكي للتاريخ ترجمة راشد البراوي .
(٣) صفحة ٤٦ البيان الشيوعي .

وتتطور تاريخياً عن الرأسمالية وانها نتيجة فعل قوة إجتماعية ولدتها الرأسمالية [1]» وان « بين المجتمع الشيوعي والمجتمع الرأسمالي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولاً ثورياً إلى المجتمع الشيوعي وتناسبها مرحلة انتقال سياسي لا يمكن أن تكون الدولة فيها سوى الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا [2] » .

هذا هو التخطيط الفلسفي لنظرية تطور تاريخ المجتمع عند الشيوعيين ولكن نظرية التاريخ هذه ترتكز عندهم على القوى المنتجة وتطورها في ضوء التاريخ .

---

(١) صفحة ٢٦ حلول الديمقراطية لينين .
(٢) صفحة ٢٨ المصدر السابق .

تطور القوى المنتجة عند الشيوعيين

إن تطور القوى المنتجة كما يفهمه الشيوعيون يمثله هذا التخطيط الذي يرسمه ستالين في كتابه المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية . يقول ستالين :

هذه لوحة تبين الخطوط الكبرى لتطور القوى المنتجة منذ أقدم الأزمان إلى يومنا هذا :

الإنتقال من الأدوات الحجرية الغليظة إلى القوس والسهم وبالتالي المرور من الصيد إلى استخدام الحيوانات وتربية المواشي بشكل ابتدائي ثم الانتقال من الأدوات الحجرية إلى المعدنية وبالتالي الانتقال إلى غرس النبات إلى الزراعة ومن ثم إجراء تحسين جديد في الأدوات المعدنية لأجل صنع مختلف المواد وظهور الكور ذي المنفاخ وصناعة الأواني الفخارية . وبالتالي تطور الحرف وانفصال الحرف عن الزراعة وتطور الحرف المستقلة أولاً ثم المانيفاكتورة فيما بعد . ثم الانتقال من أدوات الإنتاج الحرفي إلى الآلة وتحويل الإنتاج الحرفي المانيفاكتوري إلى صناعة قائمة على الآلة ومن ثم الانتقال إلى نظام الآلات وظهور الصناعة الميكانيكية الحديثة الكبرى . هذه هي اللوحة التي رسمها ستالين لتطور القوى المنتجة طوال تاريخ البشرية [1] » .

فإذا اضفنا إلى هذه اللوحة نظرية الشيوعية في الطبقات اكتملت وجهة النظر التاريخية في الفلسفة الشيوعية .

---

(١) صفحة ٤٠ - ٤١ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تأليف ستالين .

ولقد تحدث ماركس وانجلز عن نظرية الطبقات هذه في البيان الشيوعي فقالا: «لم يكن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا سوى تاريخ نضال بين الطبقات . . . أي بالاختصار المضطهدون والمضطهدين كانوا في تعارض دائم يخوضون غمار حرب مستمرة مفتوحة تارة ومستترة تارة أخرى حرب انتهت في كل مرة إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره وإما بدمار الطبقتين المتصارعتين معاً . . وخلال العصور الأولى من التاريخ نجد المجتمع في كل مكان تقريباً منظماً تنظيماً معقداً على درجات مختلفة كما نجد تسلسلاً واضحاً في المراتب الإجتماعية [1] » .

فكما هو واضح من هذا النص إن ماركس وانجلز يريان أن النضال بين الطبقات يتولد من علاقات الإنتاج .

فما هي هذه العلاقات ؟ .

نتابع وصف ستالين لها في الفصل التالي .

---

(١) صفحة ٢٦ - ٢٧ البيان الشيوعي - ماركس وانجلز .

علاقات الإنتاج عند الشيوعيين

تحدث ستالين في كتابه المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية عن علاقات الإنتاج فقال: «سجل التاريخ خمسة أنواع أساسية لعلاقات الإنتاج : المشاعية الإبتدائية ، الرق ، النظام الإقطاعي ، النظام الرأسمالي النظام الإشتراكي [1] » .

١ ـ المشاعية الإبتدائية :

« في نظام المشاعية الإبتدائية تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج وذلك يطابق من حيث الأساس طابع القوى المنتجة في هذا الدور فالأدوات الحجرية وكذلك القوس والسهام التي ظهرت فيما بعد لم تكن تسمح للناس بأن يناضلوا منفردين ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة . فلأجل قطف الثمار في الغابات ولأجل صيد السمك ولأجل بناء مسكن ما .

كان الناس مجبرين على العمل بصورة مشتركة ويؤدي العمل المشترك إلى الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج والمنتجات » ويستخلص ستالين من ذلك أن علاقات الإنتاج في هذا الطور « لا يوجد فيها معنى لمفهوم الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وان هذا الطور لا استثمار فيه ولا طبقات » .

٢ ـ الرق :

فإذا تحدث ستالين عن النوع الثاني من أنواع علاقات الإنتاج وهو نظام الرق قال :

(١) صفحة ٤١ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ـ ستالين .

« إن في نظام الرق تؤلف ملكية سيد العبيد لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج . وعلاقات إنتاج كهذه تطابق من حيث الأساس حالة القوى المنتجة في هذا الدور . فعوضاً عن الأدوات الحجرية اصبحت عند الناس الآن أدوات معدنية وبدلاً من اقتصاد يقتصر على صيد ابتدائي فقير يجهل تربية المواشي والزراعة . نشهد ظهور تربية المواشي والزراعة وحرفاً شتى . وتقسيم العمل بين هذه الفروع المختلفة للإنتاج كما نشهد ظهور إمكان تبادل المنتجات بين الأفراد والجماعات وإمكان تراكم الثروة بين أيدي عدد ضئيل من الناس وتكدس وسائل الإنتاج بصورة فعلية في أيدي قليلة وإمكان جعل الأكثرية خاضعة للأقلية وتحويل اكثر الناس إلى عبيد » بعد هذا الشرح الذي يقدمه ستالين عن طور الرق يستخلص هذه النتيجة ليصف بها علاقات الإنتاج في هذا الطور فيقول :

« هنا لم يبق عمل مشترك حر يقوم به أعضاء المجتمع خلال سير الإنتاج . . . ولهذا لم تبق أيضاً ملكية مشتركة لوسائل الإنتاج ولا للمنتوجات إذ قد حلت محلها الملكية الخاصة . هنا يصبح سيد العبيد هو المالك الأول والرئيسي المالك المطلق . أغنياء وفقراء ومستثمرون ومستثمَرين أناس لهم كل الحقوق وأناس ليس لهم أي حق نضال طبقي حاد بين هؤلاء وأولئك تلك لوحة الرق » .

٣ ـ النظام الإقطاعي:

فإذا انتقل ستالين للحديث عن النظام الإقطاعي ذكر أن « في النظام الإقطاعي تؤلف ملكية النبيل الإقطاعي لوسائل الإنتاج وملكيته المحدودة للشغيل أساس علاقات الإنتاج . ونجد إلى جانب الملكية الإقطاعية ملكية الفلاح والحرفي الفردية المشتملة على أدوات الإنتاج وعلى اقتصادهما الخاص المؤسس على العمل الشخصي وعلاقات الإنتاج هذه تطابق من حيث الأساس حالة القوى المنتجة لهذا الدور . فإن تحسين الحديد المسكوب واتقان معالجة الحديد وتعميم استعمال

المحراث ونول النسيج وتطور الزراعة والبستنة وصناعة الخمور وصناعة الزيت » .

« كل ذلك يؤلف الخصائص المميزة لحالة القوى المنتجة » « وتتطلب القوى المنتجة الجديدة من الشغيل أن يبدي شيئاً من البداهة والابتكار في الإنتاج لذلك يتخلى النبيل الإقطاعي عن العبد الرقيق الخالي من كل اهتمام بالعمل والمحروم من كل مبادهة على الإطلاق ويفضل أن يعامل قناً يملك اقتصاده الخاص وأدوات الإنتاج ولديه شيء من الاهتمام بالعمل هذا الإهتمام الذي لا بدّ منه حتى يزرع الأرض ويدفع حصته من عين محصوله إلى الإقطاعي » ثم يستخلص ستالين من كل ذلك هذه النتيجة فيقول :

« هنا تتابع الملكية الخاصة تطورها ويبقى الاستثمار على مثل قسوته في عهد الرق بل لا يكاد يلين إلاّ قليلاً فالنضال الطبقي بين المستثمرين والمستثمَرين هو الميزة الأساسية للنظام الإقطاعي» .

٤ ـ النظام الرأسمالي

فإذا تحدث ستالين عن النظام الرأسمالي قال :

« في النظام الرأسمالي تؤلف الملكية الرأسمالية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج أما امتلاك المنتجين أي العمال المأجورين فليس له وجود فهم محرومون من وسائل الإنتاج وهم مضطرون لكي لا يموتوا جوعاً أن يبيعوا قوة عملهم للرأسمالي وأن يعانوا نير الاستثمار » .

وهناك إلى جانب الملكية الرأسمالية لوسائل الإنتاج ملكية الفلاح والحرفي الخاصة لأدوات الإنتاج بعد أن تحرروا من القنانة فقد كانت هذه الملكية المؤسسة على العمل الشخصي منتشرة انتشاراً واسعاً في بادىء الأمر وحلت الفبارك والمعامل العظيمة المجهزة بالآلات محل ورش الحرفيين والمانيفاكتورات كما أن الإستثمارات الرأسمالية الكبيرة تزداد على أساس العلم الزراعي . وهذه الاستثمارات الرأسمالية الكبيرة حلت محل أملاك النبلاء التي تزرع بواسطة أدوات الفلاحين البدائية . وهذه القوى المنتجة الجديدة تتطلب من الشغيلين أن يكونوا اكثر ثقافة وذكاء من الأقنان الجاهلين البلداء وأن تكون لديهم الكفاءات اللازمة لفهم الآلة وأن يجيدوا استعمالها كما ينبغي . ولهذا يفضل الرأسماليون أن يتعاملوا مع عمال مأجورين محررين من قيود الرق وحائزين على ثقافة كافية تساعدهم على استعمال الآلات استعمالاً لائقاً . . . لكن الرأسمالية بسبب تنميتها القوى المنتجة بنسبة هائلة وقعت في تناقضات لا تستطيع حلها . فهي بإنتاجها كميات متزايدة من البضائع وبإنقاصها أسعار هذه البضائع تزيد المزاحمة تفاقماً واشتداداً وترمي جماهير الملاكين

الفرديين الصغار والمتوسطين في الخراب والدمار وتجعلهم في حالة البروليتاريين وتخفض مقدرتهم الشرائية وتكون النتيجة أن تصريف البضائع المصنوعة يضحى مستحيلاً » .

بعد هذا الغرض الذي يقدمه ستالين عن النظام الرأسمالي يذكر هذه النتيجة التي يؤدي إليها النظام الرأسمالي حسب اعتقاده فيقول « إن الرأسمالية بتوسعها الإنتاج وتجميعها ملايين العمال في فبارك ومعامل عظيمة تطبع عملية الإنتاج بطابع إجتماعي . وبذلك تحرف قاعدتها بنفسها لأن الطابع الإجتماعي لعملية الإنتاج يتطلب ملكية اجتماعية لوسائل الإنتاج ولكن وسائل الإنتاج تبقى ملكية خاصة رأسمالية غير متلائمة مع الطابع الإجتماعي لعملية الإنتاج » إلى أن يقول : « إن هذه التناقضات التي لا تحل بين طابع القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تظهر في ازمات تزايد الانتاج الدورية . فنرى الرأسماليين نظراً لعدم وجود شارين قادرين على الدفع بسبب خراب الجماهير الذي تقع مسؤوليته عليهم انفسهم يضطرون إلى حرق المحصولات وإتلاف البضائع الجاهزة ووقف الإنتاج وتحطيم القوى المنتجة بينما ملايين الناس يقاسون آلام البطالة والجوع لا لفقدان البضائع بل لكثرة ما أنتج منها . ثم يستطرد ستالين قائلاً ومعنى هذا أن علاقات الإنتاج الرأسمالية لم تعد مطابقة لحالة القوى المنتجة بل دخلت معها في تناقض لا يحل . معنى هذا أن الرأسمالية تحمل في صلبها ثورة مدعوة إلى إحلال الملكية الإشتراكية في مكان الملكية الرأسمالية الحالية لوسائل الإنتاج . معنى هذا أن نضالاً حاداً من أشد ما عرف بين المستثمرين والمستثمَرين هو الميزة الأساسية للنظام الرأسمالي .

٥ ـ النظام الشيوعي :

بعد ذلك يتحدث ستالين عن النظام الشيوعي فيقول : « إن في النظام الإشتراكي الذي لم يتحقق حتى الآن إلاّ في إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية تؤلف الملكية الإجتماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج . ثم

يضيف إلى ذلك قوله: «هنا لم يبق لا مستثمِرين ولا مستثمَرين وتوزع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل إنسان وتبعاً للمبدأ القائل « من لا يعمل لا يأكل » .

فإذا تحدث ستالين عن علاقات الإنتاج في هذا النظام قال : أما العلاقات بين الناس في عملية الإنتاج فهي علاقات تعاون أخوي وتساعد اشتراكي بين شغيلة محررين من الاستثمار . وعلاقات الإنتاج مطابقة تماماً لحالة القوى المنتجة لأن الطابع الإجتماعي لعملية الإنتاج يجد دعامة له في الملكية الإجتماعية لوسائل الإنتاج [1] » .

هذه باختصار وجهة نظر الشيوعية في المفهوم الطبقي وعلاقات الإنتاج كما يقدمها ستالين في كتابه (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية) .

---

(١) صفحات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية باختصار .

نقد وملاحظة

نلاحظ أن هذا التاريخ الذي يسرده ستالين لا يعتمد إلاّ على الوقائع التاريخية التي حدثت في بعض البلاد الأوروبية . وهذه الوقائع التاريخية لم تحدث بنفس هذه الصورة التي رتبها بها يوسف ستالين هذه الصورة التي استعان فيها ستالين بكتابات كارل ماركس وفردريك انجلز . وإن ماركس وانجلز في نظريتهما التاريخية لم يكونا في الواقع سوى مؤرخين غير منصفين وما ذلك إلاّ لأنهما يضربان بكل نظرية اخرى عرض الحائط . بل حتى ولا يعرضان أية نظرية اخرى ليناقشانها نقاشاً موضوعياً .

فكل نظرية اخرى هي عندهما انحراف بالعلم أو رجعية مع أنهما في نظريتهما التاريخية لا يحفلان بغير الجانب الإقتصادي من الوقائع التاريخية ويفسران جميع الوقائع التاريخية على هذا الأساس الإقتصادي ويهملان الجوانب السياسية والنفسية والدينية وغيرها مع أن لها جوانب في الوقائع التاريخية لا يصح أن تهمل .

ومع ذلك لو كانت نظرية كارل ماركس وفردريك انجلز مجرد نظرية في التاريخ لرأى الناس فيها لوناً من ألوان التفكير التي حفلت بها الثقافة الإنسانية في خطواتها عبر التاريخ . ولكن ماركس وانجلز يفرضان نظريتهما التاريخية على أنها الحقيقة الوحيدة أو الأخيرة التي لن تخلفها نظرية اخرى ولن يتطرق إليها الشك ولن يرقى إليها البطلان يعرضانها وكأنها التفسير الوحيد للعالم والتفسير الأخير الذي لن يعقبه تفسير آخر . أكثر من هذا انهما لا يعرضان نظريتهم التارخية مجرد عرض فكري على البشرية يستمد تأييده من قوة المنطق ومن استيفاء نظريتهما للإحتياجات

الإنسانية إن صحّ أنها تتسع لشيء !! ولكنهما يفرضانها فرضاً يستخدم القسر والخنجر وصناعة الذبح . . يؤكد ذلك خطاب ارسله كارل ماركس إلى فردريك انجلز بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٨٦٦ م فلقد جاء فيه :

ان «ليس هناك ناحية أقوى من صناعة الذبح من حيث دعمها لنظريتنا[١]» مع ان هذه النظرية ليست إلاّ فكرة بشرية في التاريخ فكرة اشترك في صياغتها كارل ماركس وفردريك انجلز وهما ليسا سوى رجلين تحد افقهما الفكري الأبعاد الثقافية لجيلهما وتصقل أفقهما وتكيفه ظروفهما الإجتماعية . . . ومهما طفرت بهما عبقريتهما فهما ليس سوى مؤرخين تتسم أعمالهما التاريخية بسمات جيلهما وحاجته الإجتماعية . بل إن ما قدمه كارل ماركس وفردريك انجلز لا يمثل إلاّ فكرتهما الشخصية في التاريخ . لأن التاريخ لا يمكن فصله عن المؤرخ ذلك اننا لا ندرس الماضي لذاته أبداً بل نبحث فيه دائماً عن أنوار نلقيها على الحاضر في سبيل تفسيره . وان ما يجعل نظرتنا تضطرب هو أننا نبحث عن وثائق تبرر نظرتنا السياسية والإجتماعية التي توجهها بل توحيها مطامعنا الشخصية . اننا حينما نبحث في التاريخ نتوصل إلى إيجاد ما نرغب فيه عن طريق احتفاظنا لا شعورياً بما يثبت نظريتنا في معطيات التاريخ أو بما يفخم معناها . وإذن فالمؤرخ وهو يغوص في الماضي بكل وجوده يستحيل عندئذٍ فصله عن التاريخ الذي يكتبه[٢] وهكذا تصبح الفلسفة التي تتخذ نظريتها من التاريخ تحمل الطابع الشخصي للمؤرخ أو الباحث . من أجل هذا لم تكن هناك حقيقة موضوعية ونهائية في فلسفة التاريخ لأن النظر إلى الماضي يتجدد بتجدد أفكار كل جيل وتجدد مشاريعه التي يضعها للمستقبل ما دامت نظرة ذلك الجيل تستوحي تجارب الإنسانية في سيرها عبر التاريخ وهكذا تصبح النظرية الماركسية في التاريخ نظرية شخصية تحمل الطابع الشخصي لماركس وانجلز والطابع الإجتماعي لجيلهما وربما أماني ذلك الجيل نحو

---

(١) صفحة ١٢٨ التفسير الإشتراكي للتاريخ مختارات من ماركس وانجلز ترجمة دكتور راشد البراوي .
(٢) صفحة ١٢١ هذه هي الديالكتيكية تأليف بول فلكبيه .

المستقبل . وبهذا لن تكون الماركسية فلسفة خالدة ونهائية . لأن في ادعاء خلودها وابديتها اعتراف بالحجر على العقل الإنساني بل بقصوره وبعقم جميع الأجيال المتعاقبة خلال سير التاريخ والحكم عليها مقدماً بالعجز عن حلول مشاكلها والعجز عن فهم الحياة ومسايرتها بالطريقة التي تروقها .

وحتى نتحقق من ذلك علينا أن نتابع في الفصل التالي نشأة النظام البلشفي في روسيا مطبقين عليه نفس نظرية كارل ماركس التاريخية حتى نتحسس عن قرب مدى صدق أو كذب معطيات الماركسية في التاريخ .

مراجع الفصل الثالث

١ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

تأليف يوسف ستالين ترجمة خالد بكداش

٢ ـ التفسير الإشتراكي للتاريخ .

مختارات من ماركس وانجلز ترجمة دكتور راشد البراوي

٣ ـ البيان الشيوعي . تأليف ماركس وانجلز

٤ ـ حول الديموقراطية الإشتراكية السوفياتية .

تأليف لينين ترجمة دار النشر باللغات الأجنبية موسكو

٥ ـ هذه هي الديالكتيكية

تأليف بول فلكييه ترجمة تيسير شيخ الأرض

الفصل الرابع

نشأة الشيوعية في روسيا .
نشوب الحرب العالمية الأولى .
الشيوعيون يخلقون الأزمة الداخلية .
الشيوعيون ينظمون الحرب الأهلية .

نشأة الشيوعية في روسيا

تقرر الفلسفة الماركسية «أن الشيوعية تنشأ من الرأسمالية وتتطور تاريخياً من الرأسمالية وانها نتيجة فعل قوة اجتماعية ولدتها الرأسمالية[1]».

« وإن بين المجتمع الشيوعي والمجتمع الرأسمالي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولاً ثورياً إلى المجتمع الشيوعي وتناسبها مرحلة انتقال سياسي لا يمكن أن تكون الدولة فيها سوى الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا[2] » وتقرر الفلسفة الماركسية « ان الرأسمالية بسبب تنميتها القوى المنتجة بنسبة هائلة تقع في تناقضات لا تستطيع حلها فهي بإنتاجها كميات متزايدة من البضائع وبانقاصها أسعار هذه البضائع تزيد المزاحمة تفاقماً واشتداداً وترمي جماهير الملاكين الفرديين الصغار والمتوسطين في الخراب والدمار وتجعلهم في حالة البروليتاريين وتخفض مقدرتهم الشرائية وتكون النتيجة أن تصريف البضائع المصنوعة يضحى مستحيلاً .

وإن الرأسمالية بتوسيعها الإنتاج وتجميعها ملايين العمال في فبارك ومعامل عظيمة تطبع عملية الإنتاج بطابع اجتماعي وبذلك تخرق قاعدتها بنفسها لأن الطابع الإجتماعي لعملية الإنتاج يتطلب ملكية اجتماعية لوسائل الإنتاج ولكن أدوات الإنتاج تبقى ملكية خاصة رأسمالية غير متلائمة مع الطابع الإجتماعي لعملية الإنتاج[3] » .

---

(١) صفحة ٢٦ حول الديمقراطية تأليف لينين .

(٢) صفحة ٢٨ المرجع السابق .

(٣) صفحة ٤٦ المادية ستالين .

« معنى هذا أن علاقات الإنتاج الرأسمالية لم تعد مطابقة لحالة القوى المنتجة بل دخلت معها في تناقض لا يحل . معنى هذا أن الرأسمالية تحمل في صلبها ثورة مدعوة إلى إحلال الملكية الإشتراكية في مكان الملكية الرأسمالية لوسائل الإنتاج [١] » إذن « فالشيوعية تنشأ عن الرأسمالية وإنها فعل قوة اجتماعية ولدتها الرأسمالية [٢] » .

هذا ما تقرره الفلسفة الماركسية وما شرحناه بشكل اوسع في الفصل السابق ولكن ما نصيب هذا الإدعاء من الصحة ؟؟ .

لمعرفة الإجابة على هذا السؤال ينبغي لنا أن نتابع نشأة النظام الشيوعي في روسيا أشار انجلز في مقدمة الطبعة الالمانية للبيان الشيوعي الصادرة في سنة ١٨٩٠ إلى « أن روسيا . . . . كانت آخر قوة احتياطية كبيرة للرجعية في اوروبا [٣] » .

ويعترف لينين بالتأخر الذي كانت عليه روسيا أثناء الثورة الشيوعية فيقول عن روسيا إنها « بلد من أكثر بلدان اوروبا تأخراً [٤] » .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تمت الثورة الشيوعية ؟؟ .

يعزي الرأي السائد نشوب الثورة البلشفية في روسيا إلى توفر العناصر اللازمة لقيامها وملاءمة الظروف لها كل الملاءمة فلقد ارتكزت هذه الثورة على عقلية الشعب الروسي من ناحية وعلى نمو روح التذمر والإستياء من ناحية اخرى لأسباب عديدة منها السياسية والإقتصادية والإجتماعية[٥] ولم ترتكز مطلقاً على المفهوم الفلسفي الذي تقرره الفلسفة الماركسية بل إن النظام الذي قامت بين يديه الشيوعية

---

(١) صفحة ٤٦ المصدر السابق .
(٢) صفحة ٤٧ نفس المصدر .
(٣) صفحة ٩ البيان الشيوعي مقدمة الطبعة الالمانية الصادرة في سنة (١٨٩٠) .
(٤) صفحة ٢٦ حول الديموقراطية الإشتراكية السوفياتية ـ تأليف لينين .
(٥) صفحة ١٠٦ مآل الرأسمالية .

كان نظاماً اقطاعياً يرتبط فيه الفلاح بالأرض ارتباط القن « وهذا النظام الإجتماعي كان يشعر بعدم المساواة بشكل مثير للشعور حقاً فقد كانت الأمة الروسية مكونة من ارستقراطية اجنبية الأصل غنية متقاعدة عن العمل غارقة في الخمول والكسل ومن إدارة فاسدة لا تفعل شيئاً سوى مضايقة الشعب ومن طبقة متوسطة محدودة العدد والنمو ومن طبقة المفكرين أعداء النظام القيصري الذين كانوا على استعداد لتأييد كل الحركات الثورية واخيراً من طبقة الفلاحين الذين تفشى فيهم الجهل وتملكهم البؤس [1] » .

« فغالبية الأراضي الزراعية كانت مملوكة للإقطاعيين الذين كانوا يتبعون اسوأ طرق الاستغلال للفلاحين الروس البسطاء . وكانت المروج الخضراء في أجزاء كبيرة من روسيا تستغل بطريقة اقرب إلى الاستغلال الجماعي منها إلى غيره من أنواع الاستغلال الأخرى . وكانت الصناعة التي لم تتم إلاّ بتدخل المالكين البلجيكيين والانجليز والفرنسيين قليلة الأهمية ومركزة في أماكن قليلة معدودة كحوض الدونتز مثلاً [2] » .

« أما روح الشعب الروسي فهي أقرب إلى الشعوب الآسيوية منها إلى الشعوب الأوروبية فهي مزيج من العنف والوداعة . . ولقد عبر المفكرون الروس تحت ضغط النظام السياسي القيصري عن أماني نفسية الشعب الملتهبة خير تعبير ووجهوها نحو الثورة لتحطيم النظام السياسي الذي كان قائماً إذ ذاك [3] أما الإقطاعيون فلم يكونوا يحسون بآلام الشعب . ولا بما يقاسيه من حاجة إلى الخبز والكساء والدواء .

وأما الحكومة القيصرية فلم تلتفت إلى الشعب ولم تعبأ بأي لون من ألوان الإصلاح بل كان كل همها الضغط على الشعب المسكين لجباية الضرائب في وحشية وقسوة وزادت الحالة سوءاً بنشوب الحرب العالمية الأولى .

---

(١) صفحة ١٠٧ المصدر السابق .

(٢) صفحة ١٠٧ نفس المصدر .

(٣) صفحة ١٠٦ المصدر السابق .

١ ـ نشوب الحرب العالمية الأولى

« في تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ اشهرت المانيا الحرب على روسيا وفي أثر ذلك اشهرت فرنسا وانجلترا الحرب على المانيا واشهرت النمسا ـ المجر الحرب على بلدان الحلفاء[١] » وقد « مني الجيش الروسي الضعيف التسليح بالهزيمة من جراء تأخر روسيا القيصرية في ميدان التكنيك والإقتصاد ومن جراء عدم كفاءة القيادة وانعدام المساعدة من جانب الحلفاء ».

فضعف الاستعداد للحرب من الناحية الإقتصادية قد بعث منذ أوائل سنة ١٩١٥ أزمة في الأسلحة والذخائر . ولقد ارتفع عدد الجيش في أواخر سنة ١٩١٤ فبلغ (٥٦٠) ألف جندي في حين أن عدد البنادق التي كانت موجودة في المخازن ساعة إعلان الحرب لم تتجاوز (٤٦٥٢) بندقية ولتعويض الخسائر كانت الجبهة تطلب نحو (٢٠٠) ألف بندقية في الشهر غير أن معامل الأسلحة الروسية لم يمكنها أن تنتج في السنة الأولى للحرب غير (٤٨٠) ألف بندقية . وكان النقص كبيراً كذلك في الذخيرة فمن شهر آب (أغسطس سنة ١٩١٤) حتى تموز (يوليو) سنة ١٩١٥ انتجت المعامل (٨٤٣) مليون طلقة بندقية في حين كان الجيش يحتاج كل شهر إلى (٢٠٠) مليون طلقة بندقية وكانت الصناعة لا تُوفي حاجة المدفعية إلى القذائف إلاّ بنسبة الثلث فقط . فقد كانت المعامل تحضر (٥٠٠) ألف قذيفة في الشهر لا غير ولم يكن بوسع المعامل الوطنية أن تؤمن الكميات اللازمة من البارود والمتفجرات الأخرى في السنة الأولى إلاّ بنسبة ١٠ إلى ١١ بالمئة .

---

(١) صفحة ٢٣٢ تاريخ إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية موجز .

وقد حاولت الحكومة القيصرية أن تحل أزمة الأسلحة عن طريق توزيع الطلبات الحربية في البلاد الأخرى [1] » فلجأت إلى كل من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية تطلب منها الأسلحة وقد كانت قيمة الطلبات الروسية في أول الأمر تدفع من موجودات بنك الدولة في الخارج واصبحت تدفع من القروض الأجنبية بعد نفاد هذه الموجودات .

«وهذا الظرف قد شدد تبعية روسيا القيصرية لرأس المال الأجنبي ففي سنوات الحرب استدانت الحكومة الروسية من الخارج مبلغاً يزيد على ٨ مليارات روبل . وقد ركزت انجلترا في أيديها تمويل الطلبات الحربية الروسية في الخارج .

فالحكومة القيصرية قد حصلت على (٧٠) بالمئة من القروض الحربية في انجلترا وعلى (١٩) بالمئة في فرنسا وعلى (٧) بالمئة في الولايات المتحدة [2] » .

وفي الأشهر العشرة الأولى من الحرب لم يتخذ أي تدبير لا من جانب الحكومة القيصرية ولا من جانب البرجوازية بغية تنظيم اقتصاد البلاد بالشكل الذي يؤمن حاجات الجيش ولم يبدأ التفكير في هذا الأمر إلاّ في أيار (مايو) سنة ١٩١٥ حينما ظهرت بوادر أزمة المعادن وحينما اخذت الجبهة تشعر بنقص في الذخائر والأسلحة .

حينئذٍ تشكلت تحت رئاسة وزير الحربية «هيئة خاصة لتموين الجيش ضمن ممثلين لمجلس الدولة ولمجلس الدوما ولمختلف الإدارات كما ضمت ممثلين للصناعيين والبنوك [3] » .

وقد كان « للبطء في تعبئة المؤخرة والإقتصاد لخدمة أغراض الحرب وعدم اتمام هذه التعبئة السبب المباشر في سوء الحالة في الميدان » .

---

(١) صفحة ٢٣٢ نفس المصدر .

(٢) صفحة ٢٣٥ ، ٢٣٦ المصدر السابق .

(٣) صفحة ٢٣٦ تاريخ إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية ـ موجز .

أما المؤسسات التي جرى إخضاعها للنظام العسكري فقد غدا فيها عمل العمال أشبه بعمل المحكومين بالأشغال الشاقة . فقد كان المختصون يرسلون العمال إلى الجبهة لأقل إخلال بالنظام أو في حالات الاشتباه بعدم ولائهم السياسي[1] مع أن الجندي الذي يرسل للميدان يجب أن يتوفر فيه قبل كل شيء الولاء السياسي . أما الصناعة « فقد نظمت نفسها بصورة عفوية لتأمين حاجات الجيش ونتيجة لذلك لوحظ في سنة ١٩١٦ ازدياد محسوس في الإنتاج الحربي[2] » « وعلى الرغم من ازدياد إنتاج الأسلحة والذخائر بسرعة كبيرة ظل الجيش الروسي طيلة فترة الحرب يعاني نقصاً كبيراً في البنادق والمدافع الرشاشة وقذائف المدفعية وفي الذخيرة اللازمة للبنادق والمدافع الرشاشة وفي المواد المتفجرة . وكان النقص العام في البنادق يزيد الحالة تحرجاً .

وكان تموين الجيش بالأسلحة الحديثة ـ الطائرات والسيارات ونحوها في وضع أردأ[3].

---

(١) صفحة ٢٣٧ المرجع السابق .

(٢) صفحة ٢٣٧ المرجع السابق .

(٣) صفحة ٢٣٨ المرجع السابق .

٢ ـ الشيوعيون يخلقون الأزمة الداخلية

وبينما كانت الحكومة القيصرية تحاول إكمال هذا النقص الذي كانت تعانيه الجيوش عمل الشيوعيون على خلق أزمة في الداخل فنشروا فكرة الإضراب فسرت بين العمال الذين كانوا يعملون بمصانع الأسلحة وكان الذين يقودون هذه الإضرابات وينظمونها هم الشيوعيون بأنفسهم .

ففي ربيع سنة ١٩١٥ «بدأ نهوض الحركة الإضرابية تحت ضغط أعباء الحرب وفي صيف سنة ١٩١٥ جرت إضرابات العمال في البلدان الآتية ـ كوستورما وايفانوفو فرزسينسك وانتهت هذه الإضرابات بإطلاق النار على العمال . واحتجاجاً على ذلك اعلنت الإضرابات في بيتروغراد وموسكو وغيرهما من المراكز الصناعية . وفي ظروف تعاظم حركة العمال الثورية والهزائم التي منيت بها الجيوش القيصرية على الجبهة نتيجة الإضرابات (سلكت البرجوازية) طريق معارضة القيصرية . ففي آب (أغسطس) سنة ١٩١٥ شكلت فرقتا البرجوازيين وكبار ملاك الأراضي في مجلس الدوما (كتلة التقدميين) . ولما كانت البرجوازية ترغب في إضعاف الحركة الإضرابية وضمان عمل المؤخرة بانتظام في خدمة الجبهة قامت في نفس الوقت بمحاولة لتأسيس فرق عمالية لدى اللجان الحربية الصناعية [١] » .

لكن تكوين هذه الفرق لم يجد . فلقد إزدادت الحالة سوءاً وشددت الحرب الأزمة الزراعية إذ كانت سبباً في شيوع الخراب في عدد كبير من اقتصاديات

(١) صفحة ٢٣٩ ، ٢٤٠ تاريخ اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية موجز .

الفلاحين ويؤخذ من أرقام الإحصاء الزراعي الذي جرى في عامة روسيا سنة ١٩١٧ ان عدد السكان الذكور القادرين على العمل قد انخفض ٤ / ٤٧ بالمئة وان عدد الخيل وهي قوة الجر الرئيسية قد انخفض من (١٧) مليوناً و ٩٠٠ ألف في سنة ١٩١٤ إلى (١٢) مليوناً و ٨٠٠ ألف في سنة ١٩١٧ . وساءت حالة تربية المواشي كذلك وانخفض إنتاج الماكينات الزراعية والأسمدة المعدنية انخفاضاً كبيراً وانقطع استيرادها تقريباً .

وكانت المساحات المزروعة تتناقص سنة بعد سنة كما كان منتوج الأرض ينخفض من سنة إلى اخرى «فالمساحات المزروعة بالحبوب والبطاطا قد انخفضت في سنة ١٩١٧ بنسبة ٧ / ١١ بالمئة بالقياس إلى سنة ١٩١٤ وانخفضت المحاصيل الإجمالية من الحبوب والعلف والبطاطا بنسبة ٢ / ٢٦ بالمئة خلال الفترة نفسها[١] » « وكانت القرية مرتبطة بالجبهة بآلاف الخيوط . وكان وعي الفلاحين السياسي مرتفعاً متأثراً بصورة مباشرة بالغليانات الثورية في الجيش وازدادت فئة البروليتاريين في الجيش من جراء تجنيد العمال» .

وقد استند البلاشفة إلى الجنود والعمال وقاموا بنشر دعاية غير علنية في الوحدات العسكرية داعين للتآخي بين جنود الأطراف المتحاربة وظهر تأثير الدعاية البلشفية قوياً جداً بين بحارة اسطول البلطيق وجنود الجبهة الشمالية بسبب قربهم من المركزين العماليين ببتروغراد وريفا[٢] واخذت الأزمة الثورية التي خلقها الشيوعيون تزداد ففي سنة ١٩١٥ اضرب في المؤسسات الخاصة لرقابة دائرة تفتيش المعامل ورقابة دائرة تفتيش صناعات الاستخراج ٥٧١ ألف شخص وارتفع هذا العدد في سنة ١٩١٦ إلى مليون و ١٧٢ ألف شخص [٣] .

«وفي سنوات ١٩١٤ / ١٩١٦ انتهت (٧٠) بالمئة من مجموع الإضرابات

---

(١) صفحة ٢٤٠ نفس المرجع.
(٢) صفحة ٢٤٠ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٢٤١ المرجع السابق.

الإقتصادية بتلبية طلبات العمال جزئياً أو كلياً[1] » مع أن نسبة «الإضرابات الناجحة في سنوات ١٩١١ / ١٩١٤ لم تزد على ٣٨ بالمئة[2] وفي نهاية سنة ١٩١٦ ساءت حالة الإقتصاد الوطني للغاية[3] » .

وذلك « أن جماهير سكان المدن قد تفشى فيهم الجوع نظراً لما اظهرته الحكومة من عجز في تنظيم التموين ونظراً لاختلال مواصلات السكك الحديدية[4] » بسبب الإضرابات المتكررة التي كان يدبرها الشيوعيون . « ففي ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١٧ كان في بيتروغراد احتياطي من الطحين يكفي لـ (١٠) أيام فقط واحتياطي من الدهون يكفي لـ (٣) أيام فقط وقد انعدم اللحم انعداماً تاماً وكانت المراكز الصناعية الأخرى في وضع اردأ[5] » مما كانت عليه في بداية إعلان الحرب .

« وكنتيجة لهزائم الجيوش الروسية وللخسائر الفادحة التي تكبدتها على الجبهات وللخراب والمجاعات » اشتدت روح التذمر « وتعاظمت الحركة الثورية بين العمال والجنود والفلاحين وصغار البرجوازيين في المدن وكانت الحركة موجهة ضد القيصرية والحرب[6] » .

---

(١) صفحة ٢٤١ تاريخ اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية موجز .
(٢) صفحة ٢٤١ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٢٤٢ نفسه .
(٤) صفحة ٢٤٢ نفسه .
(٥) صفحة ٢٤٢ نفسه .
(٦) صفحة ٢٤٣ المرجع السابق.

٣ ـ الشيوعيون ينظمون الحرب الأهلية

عندما كانت معظم الجيوش الروسية في جبهات القتال تحارب من أجل تحقيق مطامع القيصرية أعلن الشيوعيون الحرب في داخل روسيا .

« فقامت المنظمات الشيوعية في روسيا بتحويل الحرب الاستعمارية إلى حرب اهلية . . . من أجل إسقاط القيصرية[١] » وابتداء من سنة ١٩١٦ نشأت في البلاد الروسية حالة ثورية واضحة وكان عدم الاستقرار الوزاري مظهراً من مظاهر عدم استقرار النظام القيصري .

ففي أثناء الحرب تغير رئيس مجلس الوزراء أربع مرات وتغير وزير الداخلية ست مرات وتغير وزير الحربية اربع مرات .

وقد سادت الفوضى من جراء تغير الوزراء دون انقطاع[٢] » . ففي أواخر سنة ١٩١٧ وجدت الثورة الروسية في الجيش عضواً قوياً لها[٣] » فهذا الجيش الذي انتقلت إليه الأفكار الشيوعية بسبب تجنيد العمال قد كان في حالة مادية ونفسية سيئة للغاية وكان على استعداد لتقبل أية دعوة تضع حداً للحرب .

فبعد قتال دام ثلاث سنوات ونصف «فقد فيها الجيش قوته المعنوية بسبب الهزائم المتتالية وعمت الفوضى صفوفه واصبح مفتقراً إلى قائد وذخيرة وملبس وطعام هذا الجيش لم يكن يرى إلاّ شيئاً واحداً هو السلام وبأي ثمن[٤] » « أما

---

(١) صفحة ٢٤٣ نفس المصدر .

(٢) صفحة ٢٤٢ نفسه .

(٣) صفحة ١١ مآل الرأسمالية ليوماريلو.

(٤) صفحة ١٠٧ مآل الرأسمالية تأليف ليوماريلو ترجمة محمد صبحي محمصاني .

الأسطول الروسي فلم يكن يتردد في الإنضمام إلى أي حركة ثورية مهما كان شكلها أو لونها[1] » .

«وهكذا لم يجد الجيش بأسطوله شيئاً أمامه يحقق امنيته سوى الثورة البلشيفية التي كان من أهم نداءاتها في تلك الفترة إقامة السلام[2] » .

واضح إذن من تلك الفقرات التاريخية التي أوردناها من الكتاب الذي يؤرخ فيه الشيوعيون انفسهم للثورة الشيوعية . . .

إن الثورة الشيوعية في روسيا لم تكن نتيجة لذلك التسلسل التاريخي الذي يخططه كارل ماركس وفردريك انجلز والذي يشيران فيه إلى أن الشيوعية تنشأ عن الرأسمالية وتتطور تاريخياً عن الرأسمالية .

بل إن الثورة الشيوعية الروسية ولدتها الإقطاعية وعجز الحكم القيصري عن إدارة البلاد وسوء الحالة الإقتصادية والهزائم المتتالية التي منيت بها الجيوش الروسية في الحرب .

وهذه الأسباب كافية لتوليد أية ثورة وفي أي بلد من البلدان والتفكير الفلسفي الذي يتسم به الثائرون هو الذي يحدد طابع الثورة الايدلوجي .

فلم تكن هناك بضائع يضحى تصريفها مستحيلاً ولم يكن هناك توسع في الإنتاج الرأسمالي وتجميع لملايين العمال في فبارك ومعامل عظيمة تطبع عملية الإنتاج بطابع اجتماعي حتى تنحرف قاعدة الرأسمالية فتؤدي إلى الثورة الشيوعية بل لم يكن هناك إنتاج رأسمالي بنسبة هائلة تقع بسببه الرأسمالية في تناقضات لا تستطيع لها حلاً .

وهكذا تفضي بنا نبوءة كارل ماركس وفردريك انجلز إلى الكذب !! .

---

(١) صفحة ١٠٧ مآل الرأسمالية.

(٢) صفحة ١٠٧ المرجع السابق .

مراجع الفصل الرابع

١ ـ حول الديمقراطية :

تأليف لينين : ترجمة دار النشر باللغات الأجنبية موسكو

٢ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية :

تأليف ستالين ترجمة خالد بكداش

٣ ـ مقدمة البيان الشيوعي : تأليف كارل ماركس وفردريك انجلز

٤ ـ مآل الرأسمالية : تأليف ليوماريلو

٥ ـ تاريخ إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية موجز

ترجمة دار النشر باللغات الأجنبية موسكو

الفصل الخامس

أطوار الشيوعية واضمحلال الدولة

١ ـ الطور الأسفل من المجتمع الشيوعي

٢ ـ الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي

الفلاحون في المجتمع الشيوعي

العمال في المجتمع الشيوعي

اضمحلال الدولة

حالة الفرد المالية في الدولة الشيوعية

أطوار الشيوعية واضمحلال الدولة :

تقرر الماركسية أن البروليتاريا بعد أن تصل إلى الحكم عن طريق الثورة وتتخلص من رأس المال وسيطرته لن تكون بهذا المكسب قد حققت الشيوعية والمجتمع الشيوعي بل لا بدّ لتحقيق المجتمع الشيوعي من تتابع طورين . طور أسفل وطور أعلى .

١ - الطور الأسفل من المجتمع الشيوعي

يقول لينين :

« إن ما نجده في الطور الأول إنما هو مجتمع لا كما تطور على أسسه الخاصة بل كما يخرج لتوه من المجتمع الرأسمالي ، أي مجتمع لا يزال من جميع النواحي الإقتصادية والأخلاقية والفكرية يحمل سمات المجتمع القديم الذي خرج من أحشائه .

هذا المجتمع الشيوعي الذي خرج لتوه من أحشاء الرأسمالية والذي يحمل من جميع النواحي طابع المجتمع القديم .

يسميه ماركس بالطور الأول أو الأسفل من المجتمع الشيوعي[1] » .

ويمضي لينين في شرح الطور الأسفل من المجتمع الشيوعي فيقول :

---

(١) صفحة ٣٥ حول الديموقراطية الإشتراكية السوفياتية ـ تأليف لينين ـ ترجمة دار النشر موسكو .

« فكل عضو من أعضاء المجتمع يقوم بقسط من العمل الضروري اجتماعياً وينال من المجتمع ائصالاً بمقدار كمية العمل الذي قام به وبموجب هذا الائصال ينال من المخازن العامة لبضائع الاستهلاك الكمية المناسبة من المنتوجات .

وبعد طرح كمية العمل التي توجه للمخصصات العامة ينال كل عامل اذن مقدار ما أعطاه[1] » « فكل فرد ينال لقاء قسط متساو من العمل الجماعي قسطاً متساوياً من المنتوجات الإجتماعية[2] » .

ويمضي لينين في شرح طبيعة هذا الطور إلى أن يقول : «فلقاء العمل المتساوي وبالتالي لقاء الاسهام المتساوي في الصندوق الإجتماعي للاستهلاك يتلقى أحدهم بالفعل اكثر من الآخر وأحدهم اغنى من الثاني . . . . ولاجتناب جميع هذه المصاعب ينبغي أن يكون الحق لا متساوٍ[3] » « لأن الناس ليسوا متساوين احدهم قوي والآخر ضعيف احدهم متزوج والآخر اعزب لدى احدهم عدد أكبر من الأطفال ولدى الآخر عدد أقل[4] » « فالطور الأول من الشيوعية لا يمكن أن يعطي لا العدالة ولا المساواة تبقى فروق في الثروة وهي فروق مجحفة[5] » انتهى حديث لينين عن الطور الأسفل من الشيوعية .

---

(١) صفحة ٣٥ المرجع السابق.
(٢) صفحة ٣٦ نفس المرجع .
(٣) صفحة ٣٦ نفسه .
(٤) صفحة ٣٦ المرجع السابق.
(٥) صفحة ٣٦ المرجع السابق .

٢ ـ الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي

يقرر لينين :

« إن الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي يأتي بعد أن يزول خضوع الأفراد المذل لتقسيم العمل ويزول معه التضاد بين العمل الفكري والعمل اليدوي .

وحين يصبح العمل لا وسيلة للعيش وحسب بل الحاجة الأولى للحياة أيضاً ، فحين تتنامى القوى المنتجة مع تطور الأفراد في جميع النواحي وحين تتدفق جميع ينابيع الثروة الجماعية بفيض وغزارة ، حين ذاك فقط يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازي تجاوزاً تاماً . ويصبح بالإمكان أن يسجل المجتمع على رايته ».

« من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته[1] » .

ثم يضيف لينين إلى ذلك قوله :

« لكن ما لا نعرفه وما لا نستطيع معرفته ما ستكون عليه سرعة هذا التطور والوقت الذي يصل فيه إلى الإنتهاء من تقسيم العمل إلى إزالة التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي إلى صيرورة العمل (أول متطلبات الحياة) .

ولذا لا يحق لنا أن نتكلم إلاّ عن حتمية اضمحلال الدولة مشيرين إلى أن هذا السير يستغرق وقتاً طويلاً وإلى توقفه على مدى سرعة تطور الطور الأعلى من

---

(١) صفحة ٣٩ حول الديمقراطية الإشتراكية السوفياتية ـ تأليف لينين .

الشيوعية تاركين مسألة وقت هذا الاضمحلال وأشكاله العملية معلقة لأنه لا توجد لدينا معلومات تسمح لنا بحل مثل هذه المسائل[1] » .

هذا هو التخطيط النظري للعمل والتوزيع في الفلسفة الشيوعية كما يشرحه لينين .

وعلى هذين العنصرين (العمل والتوزيع) يرتكز الطور الأول والطور الأعلى للشيوعية . ولقد مضت على تجربة تطبيق أطوار الشيوعية في الإتحاد السوفياتي حتى هذا العام (١٩٦٤) سبع واربعون سنة فماذا تمّ بالنسبة لهذه الأطوار في حقل التطبيق ؟

لنتابع ما تمّ للعمال والفلاحين ولبقية الفئات في الفقرات التالية .

---

(١) صفحة ٤٠ نفس المصدر .

الفلاحون في المجتمع الشيوعي

« طبق النظام الشيوعي على الزراعة التي كانت حالتها قد ازدادت سوءاً في بداية الثورة فأعرض الفلاحون عن العمل وكانوا يخفون حاصلاتهم كرد على الإجراءات الصارمة التي اتخذتها معهم الإدارة الشيوعية . فأمر ستالين بتصفية هؤلاء الزراع المسمين (في اللغة الروسية كولاكس) ولقد ترتب على هذا الإجراء الصارم نفي ما يقرب من (٥) إلى (١٠) ملايين نفس في ثلاث سنوات . وفي ذات الوقت الذي أباد فيه ستالين الكولاكس قرر تقسيم الأرض إلى قسمين قسم تستغله الدولة وقسم تستغله الجماعة . وهذا القسم الأخير يشمل غالبية الأراضي[1] » .

« فكانت النتائج الإقتصادية وخيمة جداً فلقد فضل الفلاحون أن يقتلوا مواشيهم بأيديهم على أن يتخلوا عنها للدولة أو للجماعة لاستخدامها .

« ولم يظهر الفلاحون الجدد نشاطاً وتفانياً في العمل : وعادت الحالة الإقتصادية إلى ألوان من البؤس لم يعهد لها مثيل من قبل .

فانتاج السكر نقص إلى النصف وعدد المواشي نقص بنسبة ٥٥ ٪ وفاق البؤس كل تصور وراحت أرواح عديدة ضحية للمجاعة والأوبئة والبرد » .

وقد كتب تروتسكي يصف الحالة بقوله :

« إن رياح الموت لم تعصف في يوم من الأيام بأراضي ثورة أكتوبر كما

---

(١) صفحة ٢٠ مآل الرأسمالية ليوماريلو - ترجمة المحمصاني .

عصفت بها هذه الأيام[1] » .

« ولكن منذ أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٢ تعاقبت القرارات التي اعطت الحياة الإقتصادية في الإتحاد السوفياتي بعض الحرية التي لولاها لماتت مختنقة فكانت هناك إجراءات جزئية وتفسير اوسع للنصوص الإدارية معدلة بذلك الصيغة الأساسية للنظام الشيوعي[2] » فقد قرر ستالين أن يعطي الأرض التي تستغل استغلالاً جماعياً للجماعة التي تستغلها بصفة دائمة لكي تعود الطمأنينة إلى نفوسهم وليكون هذا حافزاً لهم على العمل .

« وهذا الوضع الجديد هو اشبه الأشياء بالإستغلال الذي تقوم به الجمعيات التعاونية في البلاد الرأسمالية . فقد منح الفلاح الذي يعمل في هذه المزارع الجماعية حق الانتفاع المطلق بمنزله وحديقته وحق تملك بقرة وخنزيرين وعجلين وعشر عنزات أو شاة وعشرين خنزيراً وعدداً غير محدود من الأرانب والطيور واخيراً سمح للفلاحين بأن يبيعوا بمطلق حريتهم لا بالسعر الذي كانت تحدده الإدارة تعسفاً .

سمح لهم أن يبيعوا الناتج من استغلالهم الفردي أو الجزء الذي يخصهم عيناً من استغلالهم للأراضي الخاضعة للاستغلال الجماعي[3] » .

---

(١) صفحة ١٢٠ المرجع السابق.

(٢) صفحة ١٢٠ ، ١٢١ المرجع السابق .

(٣) صفحة ١٢١ مآل الرأسمالية ـ ليوماريلو.

العمال في المجتمع الشيوعي

عندما طبق النظام الشيوعي على العمال ضن العمال بمجهودهم لأنهم فقدوا الدافع النفسي الذي يجعلهم يتفانون في أعمالهم . فلما حددت لهم الدولة القدر الذي يجب على العامل انتاجه يومياً ظل العمال يؤدون الواجب ولكن في آلية ورتابة . فكان هم حكومة الإتحاد السوفياتي زيادة انتاج اليد العاملة بعد أن كان قد وصل إلى أدنى درجة .

وفي أواخر سنة ١٩٣٥ بلغ اسماع مديري (قوميسارية) الصناعات الثقيلة عن عامل من عمال مناجم الفحم يدعى « شتكهانوف » أراد يوماً أن يثبت لزملائه في العمل أنه عندما يكون العمل منظماً والأدوات معدة إعداداً حسناً فإنه في الإمكان زيادة الانتاج اليومي زيادة كبيرة . وقد سجل هذا العامل بطريقته هذه رقماً قياسياً ثم زاد عليه أحد زملائه ثم استعاد شتكهانوف مركزه من جديد ، وبلغ رقمه القياسي الثاني عشرة أمثال الرقم الأول .

وعندما سمع العمال بقصة « شتكهانوف » هذا اخذوا يقلدونه في صناعاتهم فاستدعى (ستالين) شتكهانوف إلى الكرملين وبعد أن تحدث معه طويلاً ظهرت له الفائدة الكبيرة التي يمكن جنيها من هذه المنافسة الرياضية بين العمال ثم استدعى أقران شتكهانوف ونظمت حفلات كبيرة دامت من ١٤ - ١٨ نوفمبر عام ١٩٣٥ لعرض هذه الطريقة على الجمهور وقام كل واحد من الشتكهانوفيين ببيان النتائج التي وصل إليها وانتهت هذه الحفلات بخطاب وجهه ستالين إلى كل عمال الإتحاد السوفياتي حثّهم فيه على أن يحذوا حذو شتكهانوف وزملائه . وختم خطابه بقوله

:«ان العامل الذي أخذ بهذه الطريقة الجديدة لجدير بلقب الأبطال وإنه لأهل لأن يكلل بأكاليل من الغار[1] » .

على أثر ذلك عدل نظام أجور العمال باتباع نظام الأجر حسب المجهود الذي يقوم به العامل في ظروف لم يعهدها أي بلد رأسمالي من قبل .

فحدد للعمال الحد الأدنى للكمية الواجب عليه انتاجها يومياً بحيث يزاد على الأجر الأدنى الذي يستحقه عنها اجراً إضافياً يتقاضاه عن كل كمية إضافية يقوم بانتاجها .

وقد ترتب على هذه الحالة . . . ان اختلفت النسب بين اجر عاملين يؤديان نفس العمل في مصنع واحد من ١ ـ ٦ وأحياناً من ١ ـ ١٠ حسب انتاج كل منهما .

«وإن نظاماً كهذا لا يمكن اقامته في بلد رأسمالي بأي حال من الأحوال فالنقابات تمقت مبدأ العمل على أساس المجهود المسمى بالإنجليزيةSwedting System وهذه النقابات إذ تقبل العمل (بالمكافأة) فذلك لأن الأجر الإضافي الذي يتقاضاه العامل يقل كلما زادت الكمية الإضافية المنتجة .

في حين أن الأجر الإضافي تصاعدي في الإتحاد السوفياتي بنسبة الزيادة[2] » .

« ولم يطل الأمر بالعمال حتى فطنوا إلى أن هذا النظام سيدفع بهم إلى إنهاك قواهم واستغلال لدرجة تفوق الطاقة . وإنه لا بدّ وأن ينقلب في آخر الأمر ضد الطبقة العاملة . لأن تسجيل أحد العمال لرقم قياسي يدفع ثمنه زملاؤه في نفس المهنة . وإنه كلما ازداد متوسط انتاج العامل أدى ذلك إلى إنقاص الأجر الأساسي للحد الأدنى .

وهذا ما تمّ بالفعل فستالين في خطبة له بالكرملين لم يخش أن يعلن الخطة

---

(١) صفحة ١٢٣ مآل الرأسمالية ليوماريلو.

الجديدة بقوله: «لا بدّ من وضع ضوابط فنية جديدة تكون في منتصف الطريق بين ما هو متبع اليوم وبين ما بلغه الشتكهانوفيون[1] » .

فالحركة الشتكهانوفية لم تكن سوى وسيلة لزيادة الإنتاج مع عدم زيادة الأجور[2] وعندما تنبه العمال لهذه الحقيقة وظهرت بوادر مقاومتهم لهذه الحركة الشتكهانوفية سنت حكومة الإتحاد السوفياتي قانوناً يجيز توقيع عقوبات ما بين الحبس ستة أشهر والإعدام لكل من يعمل ضد الحركة الشتكهانوفية.

وفضلاً عن التشريع الذي سنته الحكومة لحماية الحركة الشتكهانوفية كانت هناك قوانين اخرى تقيد العمال بطريقة لم تعهد في البلاد الرأسمالية وهذه صورة موجزة للتشريع العمالي الذي يحكم السواد الأعظم من الشعب السوفياتي .

فقد صدر (مرسوم في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٠) وأيد بآخر في أكتوبر سنة ١٩٣٠ وأيد كذلك في ٢٦ يونيو و ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٠ يقرر هذا المرسوم « لا يجوز للعامل السوفياتي أن يترك باختياره العمل المفروض عليه فإذا فعل ذلك اعتبر خائناً واستحق عقوبة عشر سنوات في معسكرات العمل[3] » .

ومرسوم آخر صدر في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٣٢ و ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ يقرر « لا يجوز التغيب عن العمل بغير اذن رسمي سابق . وكل تغيب عن العمل أو تأخر عن موعد مباشرته ثلاث مرات في خلال شهر واحد يستوجب فصل العامل وحرمانه من مسكنه وعقوبة السجن من ستة أشهر إلى اثني عشر شهراً[4] » .

ومرسوم أول يونيو سنة ١٩٣٢ و ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٢ يقرر « العمال مسؤولون عن كل تلف يصيب المصنع أو اجهزة الإنتاج . وكل اذى يصيب الآلات

---

(١) صفحة ١٢٤ المرجع السابق .

(٢) صفحة ١٢٥ نفس المرجع .

(٣) صفحة ١٨٠ المرجع السابق .

(٤) صفحة ١٨٠ محاضرة الدكتور محمد عبد الله العربي عن الالحاد الشيوعي .

أو المواد الخام أو الوقود أو ملابس العمل يستوجب خصماً من أجر العامل يعادل عشرة أمثال قيمة التلف[1] » والقانون الصادر من مجلس السوفيات الأعلى في ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٠ يقرر « ان مدير المصنع أو محل العمل له توقيع العقاب بالسجن مع الأشغال إلى أربعة اشهر بدون رفع الأمر إلى المحكمة فإذا رأى أن مخالفة العامل تستوجب عقوبة أشد قدم العامل إلى محكمة الشعب[2] » .

هذه بعض نصوصهم التشريعية ولولا ضيق المقام لأوردنا الكثير منها ونأمل أن نخصها في المستقبل القريب بدراسة .

ومن هذه النصوص يرى القارىء «أن ترك العامل لعمله مهما كان سبب الترك محظوراً وعقوبته عشر سنوات وان الحرية الشخصية سواء في الإقامة أو التنقل أو اختيار العمل أو مباشرته منعدمة .

وان أقل تغيب عن العمل أو تأخير يسير عن موعد مباشرته عقوبته السجن من ٦ إلى ١٢ شهراً وان أقل تلف يصيب أدوات المصنع أو اجهزته أو سائر ما فيه عقوبته الغرامة بعشرة أمثال قيمة التلف ، وان مدير المصنع هو الحاكم القضائي ، أو الإداري المطلق الذي لا مرد لحكمه[3] » .

من ذلك نتبين أن العامل الشيوعي يساق إلى المصنع أو إلى الزراعة الجماعية سوق الانعام ولا يملك من امره شيئاً إلاّ أن يذعن لانجاز ما فرضته عليه السلطات الحكومية مهما كان هذا العمل مرهقاً لبدنه منهكاً لقواه . ويا ويل الضعيف إذ عجز عن إنجاز نصيبه المفروض . فإنه سوف يكون هدفاً للإتهام بالخيانة والعقاب المنصوص عليه في تلك القوانين سالفة الذكر . من كل ذلك نتبين أن الشيوعية قد تراجعت في حقل التطبيق وتعسرت أطوارها في المجتمع وقاومتها غريزة التملك

---

(١) صفحة ١٨٠ محاضرة الدكتور محمد عبد الله العربي عن الألحاد الشيوعي .

(٢) صفحة ١٨٠ محاضرة الدكتور محمد عبد الله العربي المذكورة وقد طبعت ضمن المحاضرات العامة التي القيت بقاعة الأندلس .

(٣) صفحة ١٨٠ نفس المرجع السابق .

سواء في أوساط العمال أم أوساط الفلاحين . ولم تعد إلاّ فكرة خيالية يتشبث بها أولئك الذين لا عقل لهم . وإلاّ فأين أطوار الشيوعية ؟ وأين المساواة ؟ .

وهل بقي في الشيوعية شيء بعد هذا ؟ .

لقد قال لينين :

« إننا لا نستطيع أن نحذف أية مقدمة أساسية ولا أي جزء جوهري من هذه الفلسفة الماركسية التي صبت قطعة واحدة من الفولاذ دون أن نبتعد عن الحقيقة الموضوعية ودون أن نقع في الخداع البرجوازي الرجعي[1] » لكن :

لقد تراجع الماركسيون في دور التطبيق عن هذه الفلسفة التي زعموا أنها صبت قطعة واحدة من الفولاذ حتى ابتعدوا فعلاً عن الماركسية نفسها .

ولقد عرضنا في الفقرتين السابقتين الشيوعية في دور التطبيق بالنسبة لكل من الفلاحين والعمال . وفي ثنايا العرض تحدثنا عن اضمحلال الدولة لكن ذلك الحديث لم يشرح حقيقة اضمحلال الدولة بالدرجة الكافية . وفي الفقرات التالية صورة لهذا الاضمحلال الذي يقول به الشيوعيون .

اضمحلال الدولة :

تؤكد الشيوعية أن الدولة سوف تضمحل حتماً وتزول . فإذا سألنا متى تزول وكم من الزمن يستغرق هذا الزوال ؟ يجيب لينين :

« إن الدولة سيتحقق زوالها في المجتمع الشيوعي وذلك عندما تحطم مقاومة الرأسماليين بصورة نهائية . عندما يتلاشى الرأسماليون عندما تنعدم الطبقات (أي عندما ينعدم التباين بين أعضاء المجتمع من حيث علاقاتهم بوسائل الإنتاج الإجتماعية) .

عندئذ فقط تزول الدولة ويصبح بالإمكان الحديث عن الحرية عندئذ فقط

(١) صفحة ٣٠ ـ ٣١ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين.

يصبح في الإمكان تحقق الديمقراطية الكاملة حقاً . الديمقراطية الخالية حقاً من كل قيد عندئذ فقط تأخذ الدولة في الاضمحلال بحكم ظرف بسيط هو واقع أن الناس عندما يتخلصون من العبودية الرأسمالية ومما لا يحصى من أحوال الاستثمار الرأسمالي وفظاعته وحماقاته وسفالاته يأخذون شيئاً فشيئاً في اعتبار القواعد الأولية للحياة في المجتمع القواعد المعروفة منذ قرون والتي كررت ألوف السنين في جميع الكتب يعتادون مراعاتها دونما عنف دون قسر ودونما خضوع بدون هذا الجهاز المعد خصيصاً للقسر والمسمى الدولة[1] » .

«فما ظلت البروليتاريا بحاجة إلى الدولة فهي لن تحتاجها من أجل الحرية بل من أجل قمع خصومها وعندما يصبح بالإمكان الحديث عن الحرية عندئذ تزول الدولة من الوجود[2] » «وبديهي ان هذا الأمر أمر قمع الأكثرية المستثمَرة بصورة دائمة من قبل الأقلية المستثمِرة يتطلب لنجاحه منتهى الفظاعة منتهى الوحشية في القمع يتطلب بحاراً من الدماء تجتاز البشرية عبرها نظم العبودية والقنانة والعمل المأجور[3] » انتهى حديث لينين .

ولينين في هذا الحديث الذي يشرح فيه حتمية اضمحلال الدولة واستعانة البروليتاريا بالقمع الذي يتطلب بحاراً من الدماء لم يخرج عن فلسفة استاذه ماركس . فلقد كتب ماركس إلى انجلز في ٧ يوليو سنة ١٨٦٦ بصدد بحار الدماء التي تجتازها البشرية يقول :

« . . . . . هل هناك ناحية اقوى من صناعة الذبح من حيث دعمها لنظريتنا التي تقوم على أساس أن تنظيم العمل . . . تعينه أدوات الإنتاج ؟ .

إن الأمر ليستأهل منك الكتابة عنه (إذ ليست لديّ المعرفة الضرورية له)

---

(١) صفحة ٣١ ، ٣٢ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين .

(٢) صفحة ٣١ ، ٣٢ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين .

(٣) صفحة ٣٣ نفس المرجع .

حتى استطيع أن اضيف ما تكتبه إلى المؤلف الذي اقوم بوضعه . . . فكر في هذا الأمر !![1] » فرسالة ماركس هذه تبين حدود هذا القمع الذي يتحول إلى اتقان لصناعة الذبح . فإذا سألنا عن الوقت الذي يمكن أن تختفي فيه هذه الصناعة (صناعة الذبح) أجاب لينين :

« في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية يظل هذا القمع امراً ضرورياً لكنه يغدو قمعاً للأقلية المستثمِرة من جانب الأكثرية المستثمَرة والجهاز الخاص الماكينة المعدة للقمع (الدولة) تبقى امراً ضرورياً ولكنها دولة انتقالية تكف عن أن تكون الدولة بمعنى الكلمة الخاص لأن قمع الأقلية المستثمِرة من قبل الأكثرية عبيد العمل المأجور في الأمس هو نسبياً أمر هين وبسيط وطبيعي[2] » ويضيف لينين إلى ذلك قوله: «إن الشيوعية هي وحدها التي تجعل الدولة أمراً لا لزوم له البتة لأنه لا يبقى عندئذ احد ينبغي قمعه . . . أحد بمعنى النضال المنظم ضد قسم معين من السكان .

إلى أن يقول: «نحن لسنا بخياليين ونحن لا ننكر أبداً امكانية وحتمية وقوع مخالفات من أفراد كما لا ننكر ضرورة قمع مثل هذه المخالفات ولكن هذا الأمر لا يحتاج إلى ماكينة خاصة للقمع إلى جهاز خاص للقمع . فالشعب المسلح نفسه يقوم به ببساطة ويسر كما تقوم جماعة من الناس المتمدنين حتى في المجتمع الراهن بتفريق متشاجرين أو بالحيلولة دون الإعتداء على امرأة . وثانياً نحن نعلم أن السبب الإجتماعي الأساسي للمخالفات التي تتجلى في الإخلال بقواعد الحياة في المجتمع هو استثمار الجماهير وعوذها وبؤسها وعندما يزول هذا السبب الرئيسي تأخذ المخالفات لا محالة في (الاضمحلال) .

نحن لا نعلم بأية سرعة وبأي تدرج ولكننا نعلم أنها ستضمحل حتماً ومع

---

(١) صفحة ١٢٨ التفسير الإشتراكي للتاريخ ـ تأليف ماركس وانجلز ترجمة راشد البراوي .
(٢) صفحة ٣٣ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين .

الاضمحلال تضمحل الدولة أيضاً[1] » .

«فما بقيت الدولة لا وجود للحرية وعندما توجد الحرية تنعدم الدولة . . . إن الأساس الإقتصادي لاضمحلال الدولة اضمحلالاً تاماً هو تطور الشيوعية تطوراً كبيراً يزول معه التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي[2] » عندئذ « يمكن للدولة أن تضمحل تماماً عندما يطبق المجتمع قاعدة (من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته) أي عندما يعتاد الناس تماماً مراعاة القواعد الأساسية للحياة في المجتمع عندما يصبح عملهم لدرجة تجعلهم يعملون طوعاً حسب طاقتهم[3] » .

هذا هو رأي الشيوعيين في الدولة كما يشرحه لينين . ولكن !! .

الدولة اليوم في الإتحاد السوفياتي اقوى منها في أي وقت مضى بل وفي أي بلد آخر . فبدلاً من أن تتلاشى الدولة كنتيجة لاختفاء الطبقات تزداد يوماً بعد يوم قسوة واستبداداً[4] بل إن هذه القسوة وهذا الاستبداد تمثل في الحكم الدكتاتوري الذي كان يمارسه ستالين . ولقد استطاع ستالين أن يجعل من نفسه الحاكم المطلق . بل انه لم يصبح حاكماً مطلقاً أو دكتاتوراً فحسب لكنه اصبح معبود الشعب الروسي . وقد ضمنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي قرارها المؤرخ في (٣٠) حزيران (يونيو) سنة ١٩٥٦ « بصدد التغلب على عبادة الشخص وعواقبها تحليلاً للأسباب التي مهدت لعبادة شخص ستالين[5] » .

ولكن السؤال كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد وأن يعبد هذه العبادة التي يعترف بها خروتشوف في المؤتمر العشرين ويعبد في مجتمع زالت فيه

---

(١) صفحة ٣٣ ، ٣٤ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين .
(٢) صفحة ٣٩ المرجع السابق .
(٣) صفحة ١٤٠ مآل الرأسمالية ـ ليوماريلو.
(٤) صفحة ٤٠ نفس المرجع .
(٥) صفحة ٣٩٩ تاريخ اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية .

رؤوس الأموال ؟ أولم يكن في هذا الاستبداد صورة لطغيان الدولة ؟ .

إننا نتساءل مع الأستاذ العقاد :

« كيف استطاع ستالين أن يجمع في يديه سلطاناً لم يستطعه قيصر ولا شاهنشاه ولا الحاكم بأمره . من طبقات القرون الأولى ؟؟ أبالدهاء الشخصي يستطاع هذا في بلد زالت فيه رؤوس الأموال ؟ أبالنفوذ السياسي يستطاع هذا في ظل مذهب يقال فيه أن النفوذ السياسي كله تبع للمنافع الإقتصادية ؟؟[1] » .

« وكيف يتاح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من انوف الأقطاب والأنداد في بلاده ؟؟[2] » .

« وقد استطاع ستالين في الشؤون الداخلية أن يستبد أشد الاستبداد لأنه قتل نحو سبعين في المئة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التي يتولى بإسمها مركزه في الحزب وفي الحكومة[3] .

فمن بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر، ثمانية وتسعون اعتقلوا واعدموا رمياً بالرصاص خلال عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص[4] » ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب وإنما كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا في المؤتمر السابع عشر للحزب . فمن (١٩٦٦) مندوباً كانوا يملكون حق الاشتراك في الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقي القبض على (١١٠٨) أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة !! .

من هذا نتبين أن عدد أولئك الذين ألقي القبض عليهم كان أكثر من الغالبية .

---

(١) مقدمة الأستاذ العقاد لبيان المؤتمر العشرين الذي القاه خروتشوف .
(٢) صفحة ٥ مقدمة العقاد لبيان المؤتمر العشرين الذي ألقاه خروتشوف .
(٣) صفحة ٤٦ خطاب خروتشوف في المؤتمر العشرين .
(٤) صفحة ٤٧ المرجع السابق .

« ولا شك أن هذه الحقيقة في ذاتها كفيلة بأن توضح مدى ما كانت عليه تلك الإتهامات من سخف وقسوة ومجافاة للمنطق . إذ كيف يعقل أن توجه تهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة إلى غالبية المشتركين في ذلك المؤتمر ؟؟[1] » .

هذا بعض ما جاء في خطاب خروتشوف اوردناه فقط كشاهد على هذه الدكتاتورية .

ولكن خروتشوف في بيانه هذا يدين نفسه وكل اعضاء حزبه لأنهم تلاميذ ستالين واعوانه وأياديه في أعمال حزبه وأعمال حكومته وشركاء له في مذهب يقوم كله على فكرة واحدة ، هي « بطلان النظم التي تتغير فيها السياسة بتغيير الأشخاص[2] » .

« قيل إن ستالين تحول بالزعامة عن سنّة أستاذه (لينين) فخرج بها عن زعامة جماعية إلى زعامة فردية . فهل يكفي أن يريد فرد واحد بين مائة وخمسين مليوناً أن يستبد بهم ليتم له ما شاء ؟ .

أليس في النظام منه مناعة تقاوم إرادة فرد واحد يناقضه كل مؤمن بهذا النظام ؟ .

ليس المهم أن الاستبداد حصل لأن ستالين حول الزعامة الجماعية إلى زعامة فردية ولكن المهم أن نعلم كيف استطاع أن يحوله فتحول وكيف فقد النظام كل إرادة له أمام ارادة فرد واحد يعتدي عليه ؟[3] » إنها لوصمة للماركسيين ونقض وإبطال لفلسفتهم القائلة بتلاشي الدولة . وهكذا نتبين أن نظام الشيوعية لا يستطيع أن يعصم نفسه من فرد واحد يدبر لنفسه وسائل هذه السطوة المنكرة فيتم له كل ما أراد من تدبير !! .

---

(١) صفحة ٣ مقدمة البيان التي كتبها الأستاذ العقاد.

(٢) صفحة ٣ مقدمة بيان المؤتمر العشرين للأستاذ العقاد.

(٣) صفحة ٩ مقدمة الأستاذ العقاد التي كتبها لبيان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الروسي.

على أن القوم يتجاهلون الواقع حين يقولون أن الاستبداد طارىء غريب على مذهبهم يخالف ما شرعه لهم (لينين) بعد قيام الثورة الشيوعية . فإن هذا الطارىء الغريب في زعمهم . . عنصر اصيل في مذهب لينين قبل تلميذه ستالين .

وإن لينين لهو القائل بصريح العبارة : « إن ديمقراطية الإشتراكية السوفياتية لا تناقض بحال من الأحوال نظام الفرد الواحد الذي يتولى الإدارة والدكتاتورية فإن إرادة الطبقة تنفذ أحياناً على يد الحاكم المطلق الذي يكون أكثر لزوماً حين يعمل منفرداً . . . . » ولا تزال هذه الفلسفة مقررة في مجموعة لينين ولا سيما الصفحات (٤٤٤) من المجلد الثلاثين[1] .

أما شريعة الذبح والتقتيل فإن ماركس يلتمس فيها التأييد كله لهذا المذهب ولقد جاء في رسالة ماركس التي ذكرناها في مكان آخر ، جاء هذا التساؤل :

« هل هناك ناحية اقوى من صناعة الذبح من حيث دعمها لنظريتنا؟؟ » .

من جميع ما تقدم نتبين أن بقاء الدولة لا يرتبط بالانتاج والتوزيع كما تزعم الشيوعية بل إن الدولة في روسيا اليوم اصبحت اقوى مما كانت عليه في أيام القياصرة !! .

---

(١) صفحة ٩ المرجع السابق .

حالة الفرد المالية في الدولة الشيوعية

وما دام اضمحلال الدولة يرتكز على الأساس الاقتصادي فمن المفيد لنا أن نلقي نظرة سريعة على الحالة الإقتصادية في روسيا . بالنسبة للأفراد .

تختلف حالة طبقة الممتازين في الإتحاد السوفياتي وهم القائمون بأمور الحكم ومديرو مختلف أنواع الترست الكبرى والمهندسون والعلماء والأساتذة والمحامون والأطباء والطيارون والضباط والممثلون والممثلات والراقصات .

تختلف ظروف هؤلاء جميعاً اختلافاً تاماً عن حياة الطبقة العاملة ويجب أن لا ننسى كذلك الكتاب وكثيراً ما يزاد على أجور الموظفين مبالغ تدفع لهم مقابل خدمات يؤدونها كدراسة موضوع من المواضيع أو الكتابة عنه في الصحف أو المجلات أو تأليف كتاب أو إلقاء محاضرات .

وكثيراً ما تكون المكافأة منحاً خاصة كسيارة أو حق السكن أو شقة مثلاً ، وليس هذا هو كل شيء فهذه الطبقة الممتازة لها الحق عادة في استعمال السيارات الحكومية أو التمتع بسكن ممتاز عن سكنى غيرهم من المواطنين وقد تكون لهم منازل في الريف ويقضون إجازاتهم في القوقاز ويقوم بخدمتهم خدم يتقاضون اجراً معيناً .

ومنذ سنة ١٩٣٨ظهرت في موسكو محلات لبيع مواد الترف وزاد الإقبال على شراء (البيانو) وأخذت زوجات رجال الطبقة الممتازة في الظهور بأناقات نسبية فمنهن من يلبسن فساتين حسب آخر (موده) واخذن يجعدن شعورهن كما تفعل

النساء في البلاد الأوروبية والأمريكية . وأخذن يستعملن مواد الترف والروائح العطرية والكحل وسائر مستلزمات الزينة[1] » .

« غير أن هذه الرفاهية التي يتمتع بها الممتازون نسبية إذا ما قورنت بالحالة في البلاد الغربية والأمريكية أما إذا بحثنا عن حالة الطبقة الأكثر عدداً وهم عمال المصانع وعمال المزارع فأول مّا يستوقف النظر هو التباين الكبير في أجور العمال نتيجة للأخذ بنظام الأجر حسب الكمية المنتجة[2] » .

ولسنا في حاجة لأن نقول إن مجرد ملكية الدولة لوسائل الإنتاج لا تبرر تطبيق نظام الأجر حسب الكمية الذي يرهق ويستنفد أهم القوى الإنتاجية وهي الإنسان .

ويمكننا أن نتساءل عما إذا كان إدخال هذا النظام في المصانع لا يقوم دليلاً على فشل الشيوعية ؟ .

إذن ان هذا النظام قد اعتبرته كل النقابات العمالية في العالم بقية من بقايا عهد البربرية[3] على أن حالة العامل المالية في روسيا لا تبقى على ما هي عليه مدى الحياة بل إن دخله ينقص إلى النصف إذا ما احيل على المعاش فعندما يبلغ العامل الخمسين من عمره يحصل على معاش يتراوح بين ربع ونصف الأجر الذي كان يتقاضاه ومنذ أن يحال إلى المعاش لا يجوز له أن يزاحم العامل العادي في عمله . وإن هو أدى عملاً استثنائياً فإنه لا يتقاضى عنه إلاّ أجراً ضئيلاً[4] وهكذا نتبين إن ما يقوم في الإتحاد السوفياتي الآن ليس الإشتراكية ولا الشيوعية !! فليس هناك أطوار للشيوعية ، فلا وجود مطلقاً لطور اسفل ولا لطور أعلى .

بل الواقع أن الإتحاد السوفياتي اليوم يقوم على رأسمالية الدولة .

---

(١) صفحة ١٣٦ ، ١٣٧ مآل الرأسمالية ـ ليوماريلو .
(٢) صفحة ١٣٤ المرجع السابق .
(٣) صفحة ١٣٤ المرجع السابق .
(٤) صفحة ١٣٦ المرجع السابق .

مراجع الفصل الخامس

١ ـ حول الديموقراطية الإشتراكية السوفياتية تأليف لينين .

٢ ـ مآل الرأسمالية ـ تأليف ليوماريلو .

٣ ـ هذه هي الديالكتيكية ـ تأليف بول فلكييه .

٤ ـ التفسير الإشتراكي للتاريخ ـ تأليف ماركس وانجلز .

٥ ـ تاريخ اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية صدر عن دار اللغات الأجنبية موسكو .

٦ ـ مقدمة بيان خروتشوف للمؤتمر العشرين للأستاذ عباس محمود العقاد .

٧ ـ خطاب خروتشوف في المؤتمر العشرين .

٨ ـ الإلحاد الشيوعي وآثاره في النظم السياسية والإجتماعية والإقتصادية ـ محاضرة للدكتور محمد عبد الله العربي .

الفصل السادس

وضع العائلة في الفلسفة الشيوعية
المرأة ملك مشاع لجميع الرجال

وضع العائلة في الفلسفة الشيوعية

عمد كارل ماركس وصديقه فردريك انجلز إلى هدم العائلة والغائها نهائياً وتحويل المرأة التي هي المرتكز الأساسي للعائلة إلى مجرد ملك مشاع بين الناس .

ولقد ضمنا رأيهما هذا البيان الشيوعي . وقد فسرا العلاقة بين المرأة والرجل تفسيراً فيه كثير من الغرابة وجعلا من الرباط العائلي المقدس الذي يربط الزوج بزوجته والولد والأهل مجرد علاقة نابعة من سير الإنتاج وقدّرا نهاية هذه العلاقة بنهاية علاقات الإنتاج .

ومن أجل ذلك تصبح الأواصر العائلية المقدسة في نظر الفلسفة الشيوعية باعثاً للنفور والإشمئزاز . ولقد جاء في البيان الشيوعي ما يلي :

« إن مفهوماتكم المغلوطة الأنانية التي تدفعكم إلى تحويل العلاقات الإجتماعية المتولدة من اسلوبكم الراهن في الإنتاج والملكية إلى قوانين طبيعية وعقلية خالدة أبدية .

هذه المفاهيم المغلوطة تشاركون فيها سائر الطبقات الحاكمة التي سبقتكم[1] » « فهذه العلاقات التاريخية التي تنشأ وتتلاشى اثناء سير الإنتاج نفسه[2] » « سوف تنتهي بانتهاء البرجوازية » .

فالقضاء على العائلة أمر حتمي في الفلسفة الشيوعية .

---

(١) صفحة ٥٠ ، ٥١ البيان الشيوعي ـ تأليف ماركس وانجلز .
(٢) صفحة ٥٠ ، ٥١ المرجع السابق .

يقول ماركس وانجلز إذا نادينا (بالقضاء على العائلة صاح الناس : يا للهول . . . بل ان أشد الناس تطرفاً يثورون ضد هذه النية . . . التي يقترحها الشيوعيون . ولكن على أية حال ترتكز العائلة الراهنة العائلة البرجوازية ؟ .

إنها ترتكز على رأس المال والربح الفردي وهذه العائلة لا توجد بكامل كيانها وتمام بنيانها إلاّ عند البرجوازية وحدها . لتجد هذه الحقيقة تكملتها في الغياب العملي للعائلة بين البروليتاريين وفي البغاء العلني وسوف تضمحل العائلة البرجوازية بكل تأكيد باضمحلال تكملتها وكلتاهما سوف تضمحلان باضمحلال رأس المال[1] » .

فأنت ترى أن ماركس وانجلز يعتقدان أن العائلة ترتكز على رأس المال والربح وسوف تضمحل باضمحلال رأس المال .

بهذا يبرر ماركس وانجلز دعوتهما التي ترمي للقضاء على العائلة . لكن الشيوعين لا ينتظرون هذا الاضمحلال حتى يأتي تلقائياً بل يأخذون في هدم العائلة متى سنحت الظروف بتطبيق الشيوعية فيقررون أن الإبن يجب أن لا يكون فيه نفع لأهله وان الأهل إذا استفادوا من كسب أبنائهم فهم مستثمرون تجب محاربتهم . يقول ماركس في البيان الشيوعي :

« أتأخذون علينا أننا نريد وضع حد لاستثمار الأهل لأبنائهم ؟ إن كان ذلك فنحن نعترف بهذه الجريمة[2] » .

كذلك تقرر الشيوعية أن الإبن يجب أن يتربى بعيداً عن التأثير العائلي حتى لا تكون له عواطف نحو أبويه أو أفراد أسرته . يقول ماركس وانجلز في البيان الشيوعي بصدد الحديث عن هذه التربية : « ولكنكم تزعمون أننا نحطم أقدس العلاقات الإجتماعية عندما نستبدل التربية الإجتماعية بالتربية البيتية تربيتكم

(١) صفحة ٥١ البيان الشيوعي ـ تأليف ماركس وانجلز .
(٢) صفحة ٥ البيان الشيوعي ـ تأليف ماركس وانجلز .

أفليست هي الأخرى اجتماعية ؟ أفلا تقررها الظروف الإجتماعية التي تربون فيها . ؟ وذلك بتدخل المجتمع بصورة مباشرة أو غير مباشرة بواسطة المدارس . ثم يضيفان إلى ذلك قولهما :

إن الشيوعيين لم يخترعوا تدخل المجتمع في التربية بل لم يفعلوا سوى السعي إلى تبديل طبيعة هذا التدخل[1] » والتبديل الذي يريده الشيوعيون في التربية هو إلغاء العائلة حتى لا تكون هناك صلة عائلية تربط الأبناء بآبائهم وأهلهم بل إن الأهل إذا استفادوا من كسب ابنائهم فهم متاجرون بأبنائهم تجب محاربتهم يؤكد ماركس وانجلز هذا المعنى بقولهما في البيان الشيوعي :

« إن تشدق البرجوازيين الفارغ عن العائلة والتربية والأواصر المقدسة التي تربط الولد والأهل يصبح باعثاً على النفور والاشمئزاز اكثر فأكثر . وإن الصناعة الكبرى الحديثة تنسف كل صلة عائلية بين البروليتاريين وتحول الأولاد إلى مواد تجارية بسيطة وأدوات عمل صرفة[2] » .

---

(١) صفحة ٥١ المرجع السابق .

(٢) صفحة ٥١ ، ٥٢ المرجع السابق .

المرأة ملك مشاع لجميع الرجال

أما إشاعة المرأة فإن الشيوعية تؤكدها بل ان الشيوعية سنت بعض القوانين لتجعل المرأة ملكاً مشاعاً بين جميع الرجال ويزعم الشيوعيون أن المرأة في النظم القائمة مشاعة سراً فهم يريدون فقط أن يعلنوا هذه الإشاعة بصفة رسمية يقول ماركس وانجلز في البيان الشيوعي :

« إن البرجوازية تزعق في جوقة واحدة ولكنكم تريدون أيها الشيوعيون إشاعة المرأة[1] » وماركس وانجلز لا ينفيان هذه التهمة بل يجيبان عليها بقولها : « ولشد ما يبعث على السخط هذا الخوف الذي توحيه إشاعة النساء الرسمية[2] » .

فأنت ترى أن ماركس وانجلز لم ينكرا إشاعة النساء بل يعترفان بها ويسخطان على المجتمع الإنساني لأنه يرفض رفضاً أكيداً أن تحول الشيوعية جميع النساء إلى ملك مشاع بين جميع الرجال .

وليؤكد ماركس وانجلز أن دعوتهما إلى إشاعة النساء دعوة طبيعية وعادية يزعمان :

« ان الشيوعيين لا يحتاجون إلى إدخال إشاعة النساء فهي كانت موجودة بصورة دائمة تقريباً[3] » فإذا سألنا ماركس وانجلز عن المجتمع الذي توجد فيه الإشاعة وبصورة دائمة تقريباً (على حد قولهما) نظفر منهما بهذه المغالطة الشيوعية

(١) صفحة ٥٢ المرجع السابق .
(٢) صفحة ٥٢ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٥٢ المرجع السابق .

الغريبة . يقول زعيما الشيوعية : « إن البرجوازيين لا يكتفون بأن يكون نساء العمال وبناتهم تحت تصرفهم هذا عدا البغاء الرسمي بل يجدون لذة خاصة في إغواء بعضهم لنساء بعض وإن الزواج البرجوازي هو في الحقيقة نظام إشاعة الزوجات[1] » .

إننا نتساءل هل حقيقة أن نساء العمال وبنات العمال بين يدي البرجوازيين يتصرفون فيهن تصرفاً داعراً ؟ .

وكيف يؤخذ البغاء الرسمي وتؤخذ الانحرافات الخلقية الشاذة الغريبة على المجتمع كمستند لتأييد إشاعة النساء ؟ .

وهل صحيح أن الزواج البرجوازي هو في الحقيقة نظام إشاعة الزوجات ؟ .

ولكن ماركس وانجلز لا يهتمان كثيراً أو قليلاً بمدى صدق تلك المغالطات بل إن كل همهما أن يقدما تلك المغالطات كتبرير لدعوتهما لإشاعة النساء وليرتبا عليها قولهما : « إذن فالذي يريده الشيوعيون هو إبدال إشاعة النساء المغطاة بصورة مفعمة بالرياء بإشاعة صريحة ومشروعة[2] » .

واضح إذن أن الشيوعية تريد أن تكون المرأة داعرة مشاعة بين الجميع وان هذه الإشاعة تكون علنية تحميها الدولة !!! . ترى هل هناك معنى للحرية والمساواة التي ضمنتها الفلسفة الشيوعية للمرأة بعد أن تضع جميع النساء موضع البغيات ؟ .

لقد ضمنت الفلسفة الشيوعية فعلاً حق المساواة بين المرأة والرجل حقوقياً فقررت « مساواة المرأة حقوقياً فيما يخص الزواج والطلاق ومساواة الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين[3] » .

---

(١) صفحة ٥٢ المرجع السابق .

(٢) صفحة ٥٢ المرجع السابق .

(٣) صفحة ٢٣٧ ، ٢٣٨ حول الديموقراطية تأليف لينين .

« فاصبحت المرأة متساوية مع الرجل من الناحية المدنية ، اجرها يعادل اجره وحقوقها السياسية تتساوى مع حقوقه[1] » حتى قال لينين : « فعلت السلطة السوفياتية في بلد من اكثر بلدان اوروبا تأخراً من أجل تحرير المرأة من أجل مساواتها مع الجنس القوي اكثر مما فعلته معاً جميع الجمهوريات المتقدمة المستنيرة الديموقراطية في العالم بأسره في مدى (١٣٠) سنة[2] » ولكن !! لا معنى لهذه الحقوق التي ضمنتها الفلسفة الشيوعية للمرأة لأن فكرة إشاعة المرأة ستهبط بهذه الحقوق إلى الصفر وتجعلها عديمة الجدوى .

ومع أن قانون الزواج الذي سنته الثورة الشيوعية يبدو في الظاهر مدخلاً للمساواة إلاّ أنه يهدف في الواقع ونفس الأمر إلى إشاعة المرأة .

« فالزواج لم يعد سوى مجرد رغبة متبادلة قابلة للفسخ بدون إبداء أي سبب بمجرد طلب أحد الزوجين ذلك . فيكتفى بتقديم طلب بسيط إلى القاضي للحصول على الطلاق . ولم تعد المرأة مجبرة على الأمومة واصبح منع النسل عملاً مشروعاً[3] » .

لقد سنت الثورة الشيوعية هذه القوانين في السنوات الأولى لقيامها وظلت تمارس تطبيقها منذ ذلك التاريخ حتى إذا مضت على الثورة الشيوعية تسع سنوات فقط أدرك الشيوعيون الجوانب السيئة لهذه القوانين ولمسوا عن قرب أن تجربة تفكك العائلة كان لها اوخم العواقب .

« ففي سنة ١٩٢٦ زاد عدد المطلقين على نصف عدد المتزوجين وعرضت على المحاكم الشيوعية خلال هذا العام (٢٠٠,٠٠٠) قضية طلب نفقة للأولاد الذين تركهم آباؤهم (مع ملاحظة أن النفقة حتى ذلك التاريخ لا تزيد عن (٣٠ أو ٤٠) روبل في الشهر وهي قيمة زهيدة جداً) والحالة الواقعية كانت أخطر بكثير

(١) صفحة ١١٢ مآل الرأسمالية ـ تأليف ليوماريلو .
(٢) صفحة ٢٣٧ حول الديمقراطية ـ تأليف لينين .
(٣) صفحة ١١٠ مآل الرأسمالية .

من الحالة القانونية لأن اغلب النفقات كانت لا تدفع .

ولقد نتج عن هذه الحالة نتائج وخيمة جداً فزاد عدد الأطفال المشردين وعم الفساد وتدهورت الأخلاق[1] » وهذه النتيجة تمخضت بصورة طبيعية عن قانون الزواج والطلاق الذي سنته الثورة الشيوعية . فلقد اصبح الزواج « مجرد اثبات لحالة مادية يمكن أن تنفصم عراها وتزول بمجرد إظهار أحد الزوجين رغبة في ذلك وان بعض كبار الموظفين قد تزوج (٣٦) مرة ستاً وثلاثين مرة[2] » تحت رعاية هذا القانون عندئذ « اضطرت حكومة الإتحاد السوفياتي أن تخطو خطوة كاملة نحو احياء العائلة واستقرارها وصيانة حرمتها[3] » .

« فاتخذت تدابير عديدة منها النص على أنه في حالة ما إذا كانت الرغبة في الطلاق من طرف واحد فلا بدّ من أن يسبقها إنذار ودفع نفقة مقدماً على سبيل التعويض للأولاد . . ثم جعلت تسجيل الطلاق مقابل ضريبة تصاعدية للشخص الواحد بنسبة عدد المرات التي اقدم فيها على الطلاق واخيراً نصّ على اعتبار الآباء مسؤولين جنائياً عن أفعال اولادهم المشردين بحيث يقضى عليهم بالسجن[4] » .

وفي نقطة اخرى سلكت الحكومة السوفياتية طريقاً مغايراً للمبادىء التي نصّت عليها القوانين . .

فقد سبقت الإشارة إلى أنه من التدابير التي اتخذتها الحكومة لتدعيم استقلال المرأة حق المرأة في الإقدام على إجراء عملية منع النسل وهذه العادة قد تفشت بسرعة كبيرة حتى كانت سبباً في ظهور امراض وعلل لا حصر لها حسب أقوال الثقاة من رجال الطب المسؤولين في الإتحاد السوفياتي وقد كان لهذا الحق أيضاً نتيجة اخرى خطيرة وهي نقصان عدد المواليد الذي بعد أن بلغ في السنوات

(١) صفحة ١٢٦ مآل الرأسمالية ـ ليوماريلو .
(٢) صفحة ١٢٦ المرجع السابق .
(٣) صفحة ٢٥٠ المرجع السابق .
(٤) صفحة ١٢٦ المرجع السابق .

الأولى للثورة ثلاثة ملايين ونصف هبط في سنة ١٩٣٦ إلى مليون ونصف[١]. أمام هذه الحالة الخطيرة لم تخش الحكومة أو تتردد في القضاء على حرية منع النسل وقصرها فقط على حالات الضرورة القصوى مع إخضاعها لمراقبة شديدة صارمة[٢] » وهكذا تراجعت الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي عن فكرة الغاء العائلة وسلكت الشيوعية شتى الطرق ومختلف الأساليب لإحياء العائلة .

ولكي يوضح القائمون على شؤون الحكم في روسيا ضرورة احتلال العائلة مكانتها الشرعية التي سلبت منها . تفنن (ستالين) في الطريقة التي يعطي بها احسن الأمثال على توثيق روابط الأسرة فقام بزيارات عديدة لوالدته واخذت الصحف تتحدث عنها اشهراً عديدة وتنشر صوره معها وصورته مع ابنته مشيرة إلى مجال الحنو والعطف الأبوي[٣] » .

« وأخيراً قرر ستالين أن الأولاد اليتامى الذين ضاقت بهم الأماكن في الملاجىء سيعهد بهم إلى عائلات موثوق بها من حيث حسن السيرة والسمعة[٤] » .

وهكذا نتبين من هذه التطورات « أن الأسرة اعيدت إلى الحالة التي كانت عليها من قبل[٥] بل إن الإعانات قد قررت « للعائلات الكبيرة[٦] » .

وهكذا نتبين أن الشيوعية قد تراجعت فعلاً عن ذلك التخطيط الذي رسمته لقضية المرأة . ولكن هذا التراجع لا يعفي الشيوعيين من القول بإشاعة المرأة لأن إشاعة المرأة من أسس الفلسفة الشيوعية .

---

(١) صفحة ١٢٦ نفس المرجع .
(٢) صفحة ١٢٧ المرجع السابق .
(٣) صفحة ١٢٧ نفس المرجع .
(٤) صفحة ١٢٨ المرجع السابق .
(٥) صفحة ١٣٩ المرجع السابق .
(٦) صفحة ١٣٩ المرجع السابق .

مراجع الفصل السادس

١ ـ البيان الشيوعي ـ تأليف ماركس وانجلز .

٢ ـ حول الديموقراطية ـ تأليف لينين .

٣ ـ مآل الرأسمالية ـ تأليف ليوماريلو .

فهرس

صفحة

الإهداء ٣
تمهيد ٥

الفصل الأول ٧

المادة الديالكتيكية ٩
الجدل والديالكتيك ٩
الديالكتيك الهيجلي ١١
منهج انديالكتيك الهيجلي ١٣
ديالكتيك ماركس ١٦
الألوهية والديالكتيك ٢٠
مراجع الفصل الأول ٢٦

الفصل الثاني ٢٦

الدين في نظر الشيوعيين ٢٩
موقف الشيوعيين من الدين ٣٣
سخرية الشيوعيين من الدين ٣٥
الأدلة على وجود الله ٣٧

صفحة

الإسلام دين العقل ٤٠
مراجع الفصل الثاني ٤٧

الفصل الثالث ٤٩

المادية التاريخية ٥١
تطور القوى المنتجة عند الشيوعيين ٥٣
علاقات الإنتاج عند الشيوعيين ٥٥

(١) المشاعية الإبتدائية ٥٥
(٢) الرق ٥٥
(٣) النظام الإقطاعي ٥٦
(٤) النظام الرأسمالي ٥٨
(٥) النظام الشيوعي ٥٩
نقد وملاحظة ٦١
مراجع الفصل الثالث ٦٤

الفصل الرابع ٦٥

نشأة الشيوعية في روسيا ٦٧
(١) نشوب الحرب العالمية الأولى ٧٠
(٢) الشيوعيون يخلقون الأزمة الداخلية ٧٣
(٣) الشيوعيون ينظمون الحرب الأهلية ٧٦
مراجع الفصل الرابع ٧٨

صفحة

الفصل الخامس ٧٩

أطوار الشيوعية واضمحلال الدولة ٨١

(١) الطور الأسفل من المجتمع الشيوعي ٨١

(٢) الطور الأعلى من المجتمع الشيوعي ٨٣

الفلاحون في المجتمع الشيوعي ٨٥

العمال في المجتمع الشيوعي ٨٧

اضمحلال الدولة ٩١

حالة الفرد المالية في الدولة الشيوعية ٩٨

مراجع الفصل الخامس ١٠٠

الفصل السادس ١٠١

وضع العائلة في الفلسفة الشيوعية ١٠٣

المرأة ملك مشاع لجميع الرجال ١٠٦

مراجع الفصل السادس ١١١